

إعداد الدكتور

عبد الغفار يونس صديق بدري

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

جامعة الأزهر بالقاهرة



بلاغة النظم القرآني في آيات حادثة الإفك

عبد الغفار يونس صديق بدري

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين ،جامعة الأزهر بالقاهرة، مصر

البريد الالكتروني : abdelghaffarbadri.4@azhar.edu.eg

الملخص :

تناول هذا البحث بلاغة النظم القرآني في آيات حادثة الإفك، وبيَّن أن التراكيب في هذه الآيات الكريمات قد تنوعت ودق نظمها، لتلائم وتناسب عظم الحادثة وخطرها، فما غلظ الله تعالى على العصاة في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها. وبيّنت في هذا البحث السمات البلاغية القرآنية في الآيات الكريمات، وكشفت عن القيم التعبيرية واللمسات الفنية من خلال تنوع التراكيب فيها مع إبراز بعض خصائص النظم القرآني المعجز في آيات الدراسة. وجاء البحث في: **مقدمة**: تحدثت فيها عن الموضوع وأسباب اختياره، وأهم الدراسات السابقة، والخطة التي سرت عليها، ومنهجي الذي اتبعته فيه.، **وتمهيد**: بعنوان: سورة النور وحادثة الإفك، وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: بلاغة النظم القرآني في آيات عقوبة من جاء بالإفك.

المبحث الثاني: بلاغة النظم القرآني في آيات عقوبة إشاعة الفاحشة

المبحث الثالث: بلاغة النظم القرآني في آيات عقوبة قذف المحصنات

وخاتمة رصدت فيها: أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

الكلمات الافتتاحية: بلاغة ـ النظم القرآني ـ التراكيب ـ حادثة الإفك، سورة النور، إعجاز.

Rhetoric of the Qur'anic Rhythm as revealed in the Verses about the Incident of Ifk (Slander)

By: Abdel- Ghaffar Younus Siddiq Badri
Department of Arabic Language and Literature
Faculty of Islamic and Arabic Studies for Men in Cairo
Azhar University

Abstract

This research discusses rhetoric of the Qur'anic rhythm in the verses about the incident of Ifk (slander) and it highlights the varied structures and precise rhythm of the Holy verses which are appropriate for the greatness of the incident and its seriousness as Allah Has not increased the penalty elsewhere as with the case of Aisha (May Allah Be pleased with her). The researcher has focused light on the rhetorical Qur'anic characteristics of the Holy verses and uncovered the expressionist values and the artistic touches shaped within the varied structures and other characteristics of the miraculous Qur'anic rhythm of the verses under study. The research includes an introduction, a preamble, four research investigations and a conclusion. The introduction talks about the topic, the reasons beyond selecting it, the previous studies, the research plan, and the approach applied. The preamble is entitled Surat Al- Nour and the Incident of Ifk (Slander). The first investigation is dedicated to trace rhetoric of the Qur'anic rhythm in the verses which talk about the penalty of the slanderer. The second investigation handles rhetoric of the Qur'anic rhythm in the verses which talk about the penalty of those who publicize immortality or obscenity. The third investigation traces rhetoric of the Qur'anic rhythm in the verses that talk about the penalty of those who accuse chaste women of adultery. Finally, the conclusion sums up the findings of the research.

Key words: Qur'anic rhythm, structures, the incident of Ifk (slander), Surat Al- Nour, inimitability

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

الحمد لله الذي حَرَّم رمي المحصنات وتوَعَّد عليه فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور:٢٣] والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين، وعلى آله الطيبين الأطهار، وصحبه الكرام، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد،،،

فقد تنوعت التراكيب في آيات حادثة الإفك ودق نظمها، لتلائم وتناسب عظم الحادثة وخطرها، فما غلظ الله تعالى على العصاة في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها وسنطوف في هذا البحث الذي جاء بعنوان: (بلاغة النظم القرآني في آيات حادثة الإفك) حول بلاغة هذه التراكيب ودقة نظمها.

أسباب اختيار الموضوع:

كان وراء اختياري لهذا الموضوع عدة أسباب من أهمها ما يلي:

١ – تنوع التراكيب في الآيات الكريمات، ودقة نظمها.

٢ – بيان السمات البلاغية القرآنية في آيات حادثة الإفك.

٣– الكشف عن القيم التعبيرية واللمسات الفنية من خلال تنوع التراكيب في الآيات الكريمات.

٤ – إبراز بعض خصائص النظم القرآني المعجز.

٥ – جدَّة الموضوع وقلة المؤلفات فيه.

الدراسات السابقة:

ندرت الدراسات البلاغية لآيات حادثة الإفك؛ فلم أعثر فيما قرأت إلا على دراسة واحدة بعنوان:

– من بلاغة القرآن في حادثة الإفك، للدكتور/ عبد الله بن أحمد محمد العمري ١٤٣٢هـ.

وهي دراسة موجزة تختلف منهجًا ومضمونًا عن دراستي.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة وثبت بأهم المصادر

والمراجع، ومحتوى للموضوعات.

أما المقدمة: فقد تحدثت فيها عن الموضوع وأسباب اختياره، وأهم الدراسات السابقة، والخطة التي سرت عليها، ومنهجي الذي اتبعته فيه.

وأما التمهيد: فكان عن: سورة النور وحادثة الإفك

واشتمل على الأمور التالية:

- التعريف بسورة النور.
- معنى الإفك.
- ترجمة لأبرز الذين جاءوا بالإفك.
- من حديث السنة عن حادثة الإفك.
- الآيات موضوع البحث.

وأما المباحث الثلاثة فهي:

المبحث الأول: بلاغة النظم القرآني في آيات عقوبة من جاء بالإفك.

المبحث الثاني: بلاغة النظم القرآني في آيات عقوبة إشاعة الفاحشة

المبحث الثالث: بلاغة النظم القرآني في آيات عقوبة قذف المحصنات

وأما الخاتمة: فرصدت فيها: أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

منهج البحث:

اعتمد البحث المنهج التحليلي للوصول إلى بلاغة النظم القرآني في آيات حادثة الإفك، وبيان السمات البلاغية فيها. [١]

هذا والله أسأل أن ينال البحث الرضا والقبول، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) - أفدت كثيرًا في ذلك ببحث: بلاغة النظم القرآني في آيات الكيل والميزان، لأســتاذنا الدكتور/ إبراهيم صــلاح الهدهد.

تمهيد

سورة النور وحادثة الإفك

التعريف بسورة النور:

سورة النور مدنية بالإجماع [(١)] وهي من سور الجزء الثامن عشر من أجزاء القرآن الكريم.

وهي السورة الرابعة والعشرون في ترتيب المصحف، وتقع بعد سورة "المؤمنون" وقبل سورة "الفرقان"

وتدخل ضمن المجموعة الثالثة من قسم المئين؛ فـ "هِي سِتّونَ وآيتان فِي الْمَدَنِيين والمكي وَأَرْبع فِي عدد البَاقِينَ" [(٢)]

وعدد كلماتها: (١٣١٦) ألف وثلاثمائة وست عشرة كلمة.

---

(١) – ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، جـ٣صـ١٨١، نشر: دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٣هـ، وبحر العلوم للسمرقندي، جـ٢صـ٤٩٤، نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري، جـ٣صـ٣٠٨، نشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤٠٧هـ، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، جـ٤صـ١٦٠، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ، زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، جـ٣صـ٢٧٥، نشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، جـ١٢صـ١٥٨. نشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م، ومفاتيح الغيب للرازي، جـ٢٣صـ٣٠٢، نشر: دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤٢٠هـ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، جـ٤صـ٩٨، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ.

(٢) – البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني، تحقيق: غانم قدوري الحمد، صـ١٩٣، نشر: مركز المخطوطات والتراث – الكويت، الطبعة: الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م. اختلافها آيتان ({بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} وَيذْهب بالأبصار) وَهُوَ الثَّانِي لم يعدهما المدنيان والمكي، وعدهما الْبَاقُونَ وَكلهمْ عد ({الْقُلُوب والأبصار}

وعدد حروفها: (٥٦٨٠) خمسة آلاف، وستمائة وثمانون حرفًا. [(١)]

وفائدة ذكر عدد الكلمات والحروف هذه "بيان مدى عناية الله ــ تعالى ــ وحفظه لكتابه الكريم؛ حيث إن آياته وكلماته وحروفه التي بين أيدينا اليوم هي.. هي التي نزلت على النبي ــ ﷺ ــ منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، من دون أن ينقص منها، أو يزاد عليها، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْن نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَه لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] أي: من التبديل، والتغير، والزيادة، والنقصان.. الخ.

ومعنى ذلك: أن كتابًا هذا وضــعه، وهذه عناية الله تبارك وتعالى به، حتى بكلماته وبحروفه.. لجدير بأن يعتنى به غاية الاعتناء، صيانة، وحفظًا، وفهمًا، وتلاوة، وعملًا بأحكامه، واتباعًا لتشريعاته، وتخلقًا بآدابه، وتوصلًا لصلاح الحال عن طريقه، وتوسلًا لنوال مرضاة الله تعالى بالتعبد به.

وفي الوقت ذاته: فإن ثبات هذه الأعداد لآياته، وكلماته وحروفه، كما هي دونما نقص أو زيادة فيها.. أبلغ رد على من تسوَّل له نفسه في إثارة أي شبهة حول نصه الشريف" [(٢)]

وجه تسميتها بهذا الاسم:

ذكر المفسرون أوجهًا كثيرة في سبب تسمية سورة النور بهذا الاسم، نذكر منها ما يلي:

١-تنويرها طريق الحياة الاجتماعية للناس، ببيان الآداب والفضــائل، وتشــريع الأحكام والقواعد، ولتضــمنها الآية المشــرقة وهي قوله تعالى: ﴿الله نور السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ﴾[النور:٣٥] أي منورهما، فبنوره أضاءت السموات والأرض، وبنوره اهتدى الحيارى والضالون إلى طريقهم"[(٣)]

٢-كثرة ذكر النور فيها فقد ذكرت مادة (ن ــ و ــ ر) في هذه السورة سبع مرات، في قوله تعالى: ﴿الله نور السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَل نورِهِ كَمِشْــكَاةٍ فِيهَا مِصْــبَاح﴾[النور:٣٥] وقوله تعالى: ﴿نور عَلَى نورٍ

(١) - غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، جــ٥صــــ١٤٠، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى١٤١٦هـ.

(٢) - سورة النور (تفسير.. ودروس.. وأحكام) للدكتور/ عبد الحي الفرماوي، صـ ٧، ٨، الطبعة الثالثة: ٢٠٠٦م.

(٣) - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للدكتور/ وهبة بن مصطفى الزحيلي، جــ١٨صــــ١١٨، نشر: دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة: الثانية ١٤١٨هـ.

يَهْدِي الله لِنورِهِ مَنْ يَشَـــاء﴾[النور:٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ الله لَه نورًا فَمَا لَه مِنْ نورٍ﴾[النور:٤٠][(١)]

٣-اشتمالها على آيات تبرئة أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ مما اتهمها به المنافقون وعرف بحادثة الإفك؛ فهذه الآيات "كشفت ظلامًا كثيفًا، كان قد انعقد في سماء المسلمين قبل أن تنزل هذه السورة، وتنزل معها هذه الآيات.. وذلك أن السيدة عائشة رضى الله عنها كانت في تلك الفترة موضع اتهام على ألسنة المشركين والمنافقين، وقد أوذي رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من هذا الحديث المفترى، كما أوذيت زوجه ــ رضي الله عنها ــ وأوذى المسلمون بهذا الذي طاف حول بيت النبوة من غبار تلك التهمة المفتراة.. فلما نزلت الآيات التي تبرّئ البريئة الصدّيقة بنت الصديق- انقشع هذا الظلام، وكشف النور السماوي، عن وجوه المنافقين المفترين" [(٢)]

٤- اشتمالها على كثير من الإشعاعات النورانية، من تشريع الأحكام، والفضائل الأخلاقية، والآداب، التي تعد قبسًا من نور الله تعالى، الذي عم الوجود كله، وأنار قلوب المؤمنين بكتابه الحكيم، الذي جعل نورًا وضياءً وفيضًا من فيوضات رحمته على عباده" [(٣)]

مقصدها:

مَقْصود هَذِهِ السّورَةِ ذِكْر أَحْكَامِ الْعَفَافِ وَالسِّتْرِ." [(٤)]

فالمقاصد القرآنية في السورة وما فيها من أحكام تتناول تسعة مقاصد أو تسعة أحكام شرعية، وهي:

---

(١) - ينظر: سورة النور (تفسير.. ودروس.. وأحكام) صـ٦.

(٢) - التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب، جـ٩صـ١١٩٩، نشر: دار الفكر العربي – القاهرة.

(٣) - ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، لنخبة من العلماء بإشراف: الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، جـ٥صـ١٦٥، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ٢٠١٠م.

(٤) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، جـــ١٢صـــ١٥٨، نشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

١ – أحكام الزنا.

٢ – أحكام القذف.

٣ – أحكام اللعان والملاعنة.

٤ – أحكام الاستئذان.

٥ – أحكام غض البصر، وحفظ الفرج.

٦ – أحكام في النكاح.

٧ – أحكام في المكاتبة.

٨ – أحكام البغاء.

٩ – أحكام في الإيمان والتوحيد [١]

فضلها:

من أصح الآثار التي وردت في فضل سورة النور:

ـ ما روي عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، أَنَّه سَمِعَ عمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ـ رضي الله عنه ـ يقول: «تَعَلَّموا سورَةَ الْبَقَرَةِ، وَسورَةَ النِّسَاءِ، وَسورَةَ الْمَائِدَةِ، وَسورَةَ الْحَجِّ، وَسورَةَ النّورِ، فَإِنَّ فِيهِنَّ الْفَرَائِضَ» [٢]

– ما روي عَنْ عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ، قَالَتْ: قَالَ رَسول اللهِ ﷺ: «لَا تنْزِلوا النساء الْغرَفَ وَلَا تعَلِّموهنَّ الْكِتَابَةَ، وَعَلِّموهنَّ الْمِغْزَلَ وَسورَةَ النّورِ» [٣]

---

(١) – قبسات من سورة النور، للدكتور محمد كامل أحمد، صـ١٠٠، نشر: دار النهضة العربية، الطبعة: الأولى: بيروت١٩٨١م.

(٢) – المستدرك على الصحيحين للحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، تَفْسِيرُ سُورَةِ النُّورِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، حديث رقم: (٣٤٩٣) جـ٢صـ٤٢٩، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

(٣) – المستدرك على الصحيحين للحاكم، تَفْسِيرُ سُورَةِ النُّورِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، حديث رقم: (٣٤٩٣)، جـ٢صـ٣٤٠.

مناسبة سورة النور لما قبلها (سورة المؤمنون):

ذكر المفسرون كثيرًا من أوجه المناسبة بين سورة النور وسورة "المؤمنون" قبلها نذكر منها ما يلي:

١- أن الله تعالى لما قال في سورة "المؤمنون": ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾[٥] ذكر في سورة النور بعدها أحكام من لم يحفظ فرجه، من الزانية والزاني، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغض البصر، وأمر فيها بالنكاح حفظًا للفروج، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف، وحفظ فرجه، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا.

ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط، ولا تناسق أبدع من هذا النسق." (١)

٢-أن الله تعالى بعد أن ذكر في سورة المؤمنين المبدأ العام في مسألة الخلق، وهو أنه لم يخلق الخلق عبثًا، بل للتكليف بالأمر والنهي، ذكر هنا طائفة من الأوامر والنواهي في أشياء تعد مزلقة للعصيان والانحراف والضلال" (٢)

٣- أن الله تعالى لما أمر رسول الله -ﷺ- في خاتمة سورة المؤمنين بطلب المغفرة والرحمة، وطلبه يستلزم مطلوبه لا محالة بدليل سَلْ تعْطَ، أردفه بذكر ما هو أصل كل رحمة ومنشأ كل خير فقال: {سورَة} أي هذه سورة أنزلناها وفرضناها أو فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها" (٣)

٤- أن الله تعالى لَمَّا ذَكَرَ مشْرِكِي قُرَيْشٍ وَلَهمْ أَعْمَال مِنْ دونِ ذَلِكَ أَيْ أَعْمَال سَيِّئَة هُمْ لَهَا عَامِلونَ، وَاسْتَطْرَدَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَحْوَالِهِمْ، وَاتِّخَاذِهِم الْوَلَدَ وَالشَّرِيكَ، وَإِلَى مَآلِهِمْ فِي النَّارِ كَانَ مِنْ أَعْمَالِهِم السَّيِّئَةِ أَنَّه كَانَ لَهمْ جَوَارٍ بَغَايَا يَسْتَحْسِنونَ عَلَيْهِنَّ وَيَأْكلونَ مِنْ كَسْبِهِمْ مِنَ الزِّنَا، فَأَنْزَلَ الله أَوَّلَ هَذِهِ السّورَةِ تَغْلِيظًا فِي أَمْرِ الزِّنَا" (٤)

---

(١) – أسرار ترتيب القرآن للسيوطي، صـ١١٢، نشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

(٢) – التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، جـ١٨صـ١١٩.

(٣) – غرائب القرآن ورغائب الفرقان، جـ٥صـ١٤١.

(٤) – البحر المحيط في التفسير لأبي حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، جـ٨صـ٥، نشر: دار الفكر – بيروت، طبعة: ١٤٢٠هـ.

مناسبة سورة النور لما بعدها (سورة الفرقان) :

ذكر المفسرون كثيرًا من أوجه المناسبة بين سورة النور وسورة الفرقان بعدها نذكر منها ما يلي:

١- أَنَّ الله تعالى لَمَّا ذَكَرَ وجوبَ مبَايَعَةِ الْمؤْمِنِينَ لِلرَّسولِ وَأَنَّهمْ إِذَا كَانوا مَعَه فِي أَمْرٍ مهِمٍّ تَوَقَّفَ انْفِصَال وَاحِدٍ مِنْهمْ عَلَى إِذْنِهِ وَحَذَّرَ مَنْ يخَالِف أَمْرَه وَذَكَرَ أَنَّ لَه ملْك السموات وَالْأَرْض، وَأَنَّه تَعَالَى عَالِم بِمَا همْ عَلَيْهِ وَمجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ، فَكَانَ ذَلِكَ غَايَةً فِي التَّحْذِيرِ وَالْإِنْذَارِ نَاسَبَ أَنْ يَفْتَتِحَ هَذِهِ السّورَةَ بِأَنَّه تَعَالَى منَزَّه فِي صِفَاتِهِ عَنِ النَّقَائِصِ كَثِير الْخَيْرِ، وَمِنْ خَيْرِهِ أَنَّه نَزَّلَ الْفرْقانَ عَلَى رَسولِهِ منْذِرًا لَهمْ فَكَانَ فِي ذَلِكَ إِطْمَاع فِي خيره وتحذير من عقابه" (١)

٢- أن سورة النور ختمت بأن الله تعالى مالك جميع ما في السموات والأرض وبدئت سورة الفرقان بتعظيم الله الذي له ملك السموات والأرض من غير ولد ولا شريك في الملك" (٢)

٣- أن الله تعالى أوجب في أواخر سورة النور إطاعة أمر النبي - ﷺ - وأبان مطلع الفرقان وصف دستور الطاعة، وهو هذا القرآن العظيم الذي يرشد العالم لأقوم طريق " (٣)

٤- أن في كلتا السورتين وصف الله تعالى أعمال الكافرين والمنافقين يوم القيامة، وأنها تكون مهدرة باطلة، فقال في النور: ﴿وَالَّذِينَ كَفَروا أَعْمالهمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [٣٩] وقال في الفرقان: ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلوا مِنْ عَمَلٍ، فَجَعَلْناه هَباءً مَنْثوراً﴾ [٢٣] (٤)

آراء العلماء في تحديد آيات حادثة الإفك :

تباينت آراء علمائنا الأجلاء في تحديد آيات حادثة الإفك وفيما يأتي تفصيل ذلك:

الرأي الأول: يرى أن عدد آيات حادثة الإفك ثمانية عشرة آية.

وأن كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله - ﷺ - وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان

(١) – البحر المحيط في التفسير لأبي حيان جـ٨صـ٧٩.

(٢) – التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج جـ١٩صـ٥ .

(٣) – المصدر السابق الصفحة نفسها.

(٤) – التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج جـ١٩صـ٦ .

الله عليها وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة، وفوائد دينية، وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها." (١)

ومن أصحاب هذا الرأي الزمخشري ت (٥٣٨هـ) (٢) الرازي (ت٦٠٦هـ) (٣)، وتبعهما في ذلك الخطيب الشربيني (ت٩٧٧هـ) (٤) والشوكاني ت (١٢٥٠هـ) (٥) والطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ) (٦)

الرأي الثاني: يرى أن عدد آيات حادثة الإفك سبع عشرة آية.

يقول السمرقندي (ت: ٣٧٣ه): "وإنما ظهر فضل عائشة بما صبرت على المحنة، فنزل بسببها سبع عشرة آية من القرآن من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ﴾ إلى قوله: ﴿لَهمْ مَغْفِرَة وَرِزْق كَرِيم﴾" (٧)

الرأي الثالث: يرى أن عدد آيات حادثة الإفك ست عشرة آية.

يقول ابن عطية (ت: ٥٤٢هـ) بعد ذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عصْبَة مِنْكمْ لا تَحْسَبوه شَرًّا لَكمْ بَلْ هوَ خَيْر لَكمْ لِكلِّ امْرِئٍ مِنْهمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَه مِنْهمْ لَه عَذاب عَظِيم﴾[سورة النور:١١] "هذه الآية وما بعدها إلى ست عشرة آية أنزلت في عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- وما اتصل بذلك من أمر «الإفك»" (٨)

---

(١) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ٣صـ٢١٧، ٢١٨.

(٢) – ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ٣صـ٢١٧، ٢١٨.

(٣) – ينظر: مفاتيح الغيب جـ٢٣صـ٣٣٨، جـ٢٣صـ٣٥٥.

(٤) – ينظر: السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني، جـ٢صـ٥٩٥، نشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة: ١٢٨٥هـ.

(٥) – ينظر: فتح القدير للشوكاني، جـ٤صـ٢١، نشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى١٤١٤هـ.

(٦) – ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، جـ١٨صـ١٩٦، نشر: الدار التونسية للنشر – تونس: ١٩٨٤هـ.

(٧) – بحر العلوم للسمرقندي، جـ٢صـ٥٠٢.

(٨) – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، جـ٤صـ١٦٨.

الرأي الرابع: يرى أن عدد آيات حادثة الإفك بضع عشرة آية

يقول النيسابوري (ت:٨٥٠هـ) وهو بصدد حديثه عن حديث الإفك: "نزلت فيه بضع عشرة آية فيها تعظيم شأن الرسول ـ ﷺ ـ وتسلية له وتنزيه لأم المؤمنين، وتطهير لأهل البيت، وتهويل للطاعنين فيهم، إلى غير ذلك من الأحكام الشرعية والآداب العقلية" (١)

الرأي الخامس: يرى أن عدد آيات حادثة الإفك عشر آيات:

أورد الطبري (ت:٣١٠هـ) في تفسيره تصريح السيدة عائشة أن عدد آيات حادثة الإفك عشر آيات؛ حيث قالت: "فأنزل الله: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءوا بِالإِفْكِ عصْبَة مِنْكمْ) عشر آيات، فأنزل هذه الآيات براءة لي "(٢)

يقول ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) بعد ذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جاؤ بِالْإِفْكِ عصْبَة مِنْكمْ لا تَحْسَبوه شَرًّا لَكمْ بَلْ هوَ خَيْر لَكمْ لِكلِّ امْرِئٍ مِنْهمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَه مِنْهمْ لَه عَذاب عَظِيم﴾[سورة النور:١١]: "هَذِهِ الْعَشْر الْآيَاتِ كلّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ أمِّ الْمؤْمِنِينَ ـ رضي الله عنها ـ حِينَ رَمَاهَا أَهْل الْإِفْكِ وَالْبهْتَانِ مِنَ الْمنَافِقِينَ بِمَا قَالوه مِنَ الْكَذِبِ الْبحْتِ وَالْفِرْيَةِ الَّتِي غَارَ الله تَعَالَى لَهَا وَلِنَبِيِّه، صَلَوَات اللهِ وَسَلَامه عَلَيْهِ فَأَنْزَلَ الله ـ عز وجل ـ بَرَاءَتَهَا صِيَانَةً لِعِرْضِ الرَّسولِ، عَلَيْهِ أَفْضَل الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ" (٣)

يقول الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ): "وَقِصَّة الْإِفْكِ مَعْروفَة مَشْهورَة ثَابِتَة فِي عَشْرِ آيَاتٍ مِنْ هَذِهِ السّورَةِ الْكَرِيمَةِ، وَفِي الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ" (٤)

---

(١) – غرائب القرآن ورغائب الفرقان، جـ٥ صـ١٦٧.

(٢) – جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، جـ١٩صـ١٢٨، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى١٤٢٠هـ٢٠٠٠م.

(٣) – تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، جــ٦صــ١٩، نشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ١٩٩٩م.

(٤) – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي، جــ٥صــ ٤٨٦، نشر: دار الفكر ــ بيروت – لبنان: ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

الرأي الراجح:

هو الرأي الثالث القائل بأن عدد آيات حادثة الإفك (١٦) ست عشرة آية، ومما يؤكد ذلك ما يأتي:

- ما رواه الطبري عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: رميت بما رميت به وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك، قالت: فبينما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عندي جالس، إذ أوحي إليه، وكان إذا أوحي إليه أخذه كهيئة السبات، وأنه أوحي إليه وهو جالس عندي، ثم استوى جالسًا يمسح عن وجهه، وقال: يا عائشة أبشري، قالت: فقلت: بحمد الله لا بحمدك، فقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمونَ الْمحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمؤْمِنَاتِ﴾... حتى بلغ: ﴿أولَئِكَ مبَرَّءونَ مِمَّا يَقولونَ﴾ (١)

- ما أخرجه ابن زيد في قوله: ﴿الْخَبِيثَات لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَات لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ قال: نزلت في عائشة حين رماها المنافق بالبهتان والفرية، فبرأها الله من ذلك. وكان عبد الله بن أبيّ هو خبيث، وكان هو أولى بأن تكون له الخبيثة ويكون لها، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- طيبًا، وكان أولى أن تكون له الطيبة، وكانت عائشة الطيبة، وكان أولى أن يكون لها الطيب ﴿أولَئِكَ مبَرَّءونَ مِمَّا يَقولونَ﴾ قال: هاهنا برّئت عائشة ﴿لَهمْ مَغْفِرَة وَرِزْق كَرِيم﴾ (٢)

- تعليق ابن حجر على ما أخرجه الطبراني لَمَّا خَاضَ النَّاس فِي أَمْرِ عَائِشَةَ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ مخْتَصَرًا وَفِي آخِرِهِ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى خَمْسَ عَشْرَةَ آيَةً مِنْ سورَةِ النّورِ حَتَّى بلغ ﴿الخبيثات للخبيثين﴾ وَهَذَا فِيهِ تَجَوّز وَعِدَّة الْآيِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ سِتَّ عَشْرَةَ" (٣)

هذا "وقد صيغت هذه الحادثة صياغة خبرية بقالب السرد الخبري متخذًا شكل الهرم المقلوب، حيث

---

(١) - جامع البيان في تأويل القرآن للطبري جـ١٩ صـ١٣٨.

(٢) - المصدر السابق جـ١٩ صـ١٤٤.

(٣) - فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، جـ٨صـ٤٧٧، نشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

تصدرت مقدمة هذا الهرم خلاصة الخبر وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النور: ١١] وهي التي تمثل قاعدة الهرم لما فيه من الإشارة والتنبيه، ثم يلي ذلك جسم الخبر أو صلبه، وهو عبارة عن الحقائق التي ذكرت تلو الأخرى بعد الخبر الأول، والتي تمثل الأنموذج الإسلامي في التوثيق الإعلامي" (١)

سبب نزول آيات حادثة الإفك:

أجمع المفسرون (٢) على أن سبب نزول آيات حادثة الإفك هو تبرئة أم المؤمنين عائشة، وصفوان بن المعطل -رضي الله عنهما- مما نسب إليهما كذبًا.

يقول ابن الجوزي: "أجمع المفسرون أن هذه الآية وما يتعلق بها بعدها نزلت في قصة عائشة -رضي الله عنه- وفي حديث الإفك" (٣)

---

(١) - التفسير الإعلامي لسورة النور، للدكتور/ خالد إبراهيم الفتياني، صـ ٦١، نشر: دار طوباس للنشر والتوزيع.

(٢) - ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، جـ١٩صـ١١٦. وبحر العلوم للسمرقندي، جـ٢صـ٥٠٢. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، جـ٤صـ١٦٨. والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ٣صـ٢١٧. وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، جـ٣صـ٢٨٢. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، جـ١٢صـ١٩٧. وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، جـ٦صـ١٩. وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، جـ ٥صـ١٦٦. والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، جـ٤صـ١٧٤، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـــ. والفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية للنخجواني، جـ٢ صـ ٥، نشر: دار ركابي للنشر – الغورية، مصر، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٩م. وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، صـ٥٦٣، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

(٣) - زاد المسير في علم التفسير، جـ٣صـ٢٨٢.

مناسبة آيات الدراسة لما قبلها:

بين لنا علماؤنا الأجلاء [١] علاقة آيات الدراسة بما قبلها فقالوا: إن الله سبحانه وتعالى بعد أن ذكر حكم من قذف الأجنبيات، وحكم من قذف الزوجات- ذكر في هذه الآيات أنموذجًا من القذف؛ ليوضح مدى شناعة هذا الجرم وبشاعته، وهو هنا يتعلق بأهل بيت رسول الله ـ ﷺ ـ وبين فيه براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك والبهتان من المنافقين، صيانة لعرض رسول الله ﷺ.

فجاءت آيات الدراسة متناسقة تمامًا مع موضوعات السورة السابقة لها، فكانت الآيات تتحدث عن هذه الحادثة ودروسها، وجاءت الموضوعات الأولى مقدمة لها، كما كانت حادثة الإفك تعليلًا لضرورة الأحكام الموجودة في الموضوعات السابقة لها. [٢]

فآيات "قصة الإفك تعليل للأحكام التي وردت في الموضوعات الأولى، وتفهيم لحكمة هذه الأحكام، وتعليم لما ينبغي أن يكون الموقف عند ما تحدث شائعة زنا؛ إن من يدرس حادثة الإفك يدرك حكمة اشتراط الشهود للزنا، وحكمة حد القذف، كما يدرك ضرورة الظن الحسن بالمؤمنين، وأن الأصل في المؤمن والمؤمنة عدم الزنا، فالصلة إذن بين آيات هذه الموضوع وما قبله واضحة، والصلة بينها وبين محور السورة واضح" [٣]

---

(١) – ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، جـ٥صـ١٦٦. وتفسير المراغي، جـ١٨صـ٨٣، نشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى١٣٦٥هـــ ١٩٤٦م. التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور/ محمد سيد طنطاوي، جـ١٠صـ٩٢، نشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى.

(٢) – ينظر: الأساس في التفسير لسعيد حوّى، جـ٧ صـ٣٦٩٨، نشر: دار السلام – القاهرة، الطبعة: السادسة ١٤٢٤هـ.

(٣) – المصدر السابق جـ٧صـ٣٧١٦.

مناسبة آيات الدراسة لما بعدها:

ذكر علماؤنا الأجلاء علاقتين لآيات الدراسة بما بعدها:

أولهما [1]: أن الله سبحانه وتعالي بعد أن ذكر حكم الرمي والقذف ذكر ما يليق به؛ لأن أهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى إفكهم من حيث اتَّفقت الخلوة فصارت كأنها طريق التهمة، فأوجب الله تعالى ألا يدخل المرء بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام؛ لأن في الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة، وفي ذلك من المضرة ما لا خفاء به.

والأخرى [2]: أن الله سبحانه وتعالي بعد أن ذكر حكم من قذف الأجنبيات، وحكم من قذف الزوجات، وذكر أنموذجًا من القذف؛ ليوضح مدى شناعة هذا الجرم وبشاعته، وكان مما يسهل السبيل إلى التّهمة في كل هذا وجود الخلوة بين رجل وامرأة- أعقب ذلك بحكم دخول المرء بيت غيره، وبين أنه لا يدخله إلا بعد الاستئذان والسلام، حتى لا يقعوا في ذلك الشر الوبيل، والخطر الجسيم، الذي يقضي على أواصر المجتمع، ويدمر الأسر، ويشيع الفحشاء بين الناس.

معنى الإفك:

الإِفْك: الْكَذِب، وَالْجَمْع الأَفَائك. وأَفَكَ الناسَ: كَذَبَهمْ وحدَّثهم بالباطل، وَرَجل أَفَّاك وأَفِيك وأَفوك:

(١) – ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ٥صـ١٧٦، ومفاتيح الغيب جـ٢٣صـ٣٥٦، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، جـ١٤صـ٣٤١، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٩ هـ١٩٩٨م.

(٢) – ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، جـ٩ص٣٢٨، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٥هـ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود، جـ٦صـ١٦٨، نشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، فتح القدير للشوكاني، جـ٤صـ٢٣، محاسن التأويل للقاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، جـ٧صـ٣٦٨، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ، تفسير المراغي جـ١٨صـ٩٤.

كَذّاب. والأَفْك، بِالْفَتْحِ: مَصْدَر قَوْلِكَ أَفَكَه عَنِ الشَّيْءِ يَأْفِكه أَفْكًا صَرَفَه عَنْه وَقَلَبَه. (١)

فالْهَمْزَة وَالْفَاء وَالْكَاف أَصْل وَاحِد، يَدلّ عَلَى قَلْبِ الشَّيْءِ وَصَرْفِهِ عَنْ جِهَتِهِ. (٢)

وقيل هو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وسمي إفكًا لكونه مصروفًا عن الحق من قولهم أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه.) (٣) ومنه قيل لمدائن قوم لوط: ﴿المؤتفكات﴾[التوبة: ٧٠] لانقلابها.

وَمَعْنَى الْقَلْبِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَ بِهِ أولَئِكَ النَّفَر أَنَّ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - كَانَتْ تَسْتَحِقّ الثَّنَاءَ بِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَصَانَةِ وَشَرَفِ النَّسَبِ وَالسَّبَبِ لَا الْقَذْفَ، فَالَّذِينَ رَمَوْهَا بِالسّوءِ قَلَبوا الْأَمْرَ عَنْ وَجْهِهِ، فَهوَ إِفْك قَبِيح، وَكَذِب ظَاهِر" (٤)

فجاء التعبير القرآني بهذا الأسلوب الذي يدل على اختلاق هذا الكلام، وأنه لا أصل له ولا حقيقة.

فالإفك – إذن – تعمّد الكذب، وإعطاء ضد الحكم، لذلك كان الإفك أفظعَ أنواع الكذب؛ لأنه يقلب الحقائق ويختلق واقعًا مضادًا لما لم يحدث.

والإفك في الاصطلاح: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه" (٥)

والمراد بالإفك في سورة النور: ما افتراه المنافقون ومن تبعهم من المؤمنين على أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها –

---

(١) – لسان العرب لابن منظور، مادة: (أ ـ ف ـ ك) جـ١٠ صـ٣٩٠، ٣٩١، نشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة١٤١٤هـ.

(٢) – معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مادة: (أ ـ ف ـ ك)، جـ١ صـ١١٨، نشر: دار الفكر: ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

(٣)- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، جـ٧ صـ٢٥٧، نشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: السابعة، ١٣٢٣هـ.

(٤) – فتح القدير للشوكاني، جـ٤ صـ١٤.

(٥) – المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، صـ٧٩، نشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى١٤١٢هـ، والتوقيف على مهمات التعاريف لزين الدين المناوي، صـ٥٧، نشر: عالم الكتب – القاهرة ـ الطبعة: الأولى ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

وقد ورد في نصّ القرآن على سبعة أوجه:

الأوّل: بمعنى الكذب: ﴿فَسَيَقولونَ هَذَا إِفْك قَدِيم﴾[الأحقاف:١١] أَي كذِب.

الثاني: بمعنى العبادة: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دونَ اللهِ تريدونَ﴾[الصافات: ٨٦]

الثَّالث: بمعنى وصف الحقِّ بالشريك والولد: ﴿أَلَا إِنَّهمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقولونَ. وَلَدَ الله وَإِنَّهمْ لَكَاذِبونَ﴾[الصافات: ١٥١، ١٥٢]

الرّابع: بمعنى قَذْف المحصنات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءوا بِالْإِفْكِ عصْبَة مِنْكمْ﴾ [النور: ١١]

الخامس: بمعنى الصّرف ﴿يؤْفَك عَنْه مَنْ أفِكَ﴾[الذاريات: ٩] أَي يصْرف، ﴿فَأَنَّى تؤْفَكونَ﴾[الأنعام: ٩٥] أَي تصرفون.

السّادس: بمعنى القلب: ﴿وَالْمؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾[النجم: ٥٣]

السّابع: بمعنى السّحر: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَف مَا يَأْفِكونَ﴾[الأعراف: ١١٧] أَي ما يسحرون.

والإفك في الأَصل كلّ مصروف عن وجهه الذي يحقّ أَن يكون عليه. وقوله تعالى: ﴿قَالوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾[الأحقاف: ٢٢] استعمله في ذلك لمّا اعتقدوا أَنَّ ذلك من الكذب. ورجل مأفوك: مصروف عن الحقِّ إِلى الباطل، وعن العقل إِلى الخيال. (١)

الْفرق بَين الْكَذِب والإفك:

يكمن الفرق بين الكذب والإفك في أَن الْكَذِب اسْم مَوْضوع للْخَبَر الَّذِي لَا مخبر لَه على مَا هوَ بِهِ سَوَاء كَانَ الْكَذِب فَاحش الْقبْح أَو غير فَاحش الْقبْح.

والإفك هوَ الْكَذِب الْفَاحِش الْقبْح مثل الْكَذِب على الله وَرَسوله أَو على الْقرْآن وَمثل قذف المحصنة، وَغير ذَلِك مِمَّا يفحش قبحه وَجَاء فِي الْقرْآن على هَذَا الْوَجْه قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[الجاثية: ٧] وَقَوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾[النور: ١١] ولا يقَال أفك

(١) – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي، تحقيق: محمد علي النجار٢/ ١٠١، نشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

حَتَّى يكذب كذبة يفحش قبحها" [١]

ترجمة لأبرز الذين جاءوا بالإفك:

اشتهر في الروايات الصحيحة أن أبرز الذين جاءوا بالإفك هم من يلي:

١- مِسْطَح بْن أَثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قصَيٍّ المطلبيّ.

واسمه عوفًا، وأما مسطح فهو لقبه، وأمه سلمى بنت صخر بْن عامر بْن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وهي ابنة خالة أبي بكر الصديق، أسلمت وأسلم أبوها قديمًا.

وشهد مِسْطَح بدرًا، وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

وتوفي سنة أربع وثلاثين، وَهوَ ابْن ستّ وخمسين سنة، في خلافة عثمان، ويقال: عاش إلى خلافة عليّ وشهد معه صفّين، ومات في تلك السّنة سنة سبع وثلاثين. [٢]

٢- حسّان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد بن عديّ بن عمرو بن مالك بن النّجار الأنصاريّ الخزرجيّ ثم النجاريّ، شاعر رسول الله ﷺ.

وأمه الفرَيعَة- بالفاء والعين المهملة مصغّرًا- بنت خالد بن حبيش بن لوذان، خزرجية أيضًا، أدركت الإسلام فأسلمت وبايعت. وقيل: هي أخت خالد لا ابنته.

يكنى: أبا الوليد، وهي الأشهر، وأبا المضرّب، وأبا عبد الرحمن، وأبا الحسام؛ لمناضلته عن رَسول

---

(١) - الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، صـــ٤٦، نشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

(٢) - أســد الغابة في معرفة الصــحابة لعز الدين ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود، جــ٤صـــ٢٩٦، نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى: ١٤١٥هــ ١٩٩٤م، والطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، جـ٣صـ٣٩، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٠هـ ١٩٩٠م، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، جــ٤ صـــ ١٤٧٢، نشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٢هــ ١٩٩٢م، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوض، جـ٦صـ٧٤، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٥هـ.

الله - ﷺ - ولتقطيعه أعراض المشركين.

توفي حسان - رضي الله عنه - قبل الأربعين، وقيل سنة أربعين. وقيل خمسين: وقيل أربع وخمسين، وهو ابن عشرين ومائة سنة أو نحوها. (١)

٣- حَمْنَة بِنْت جَحْش بْنِ رباب يَعْمَر بْنِ صَبِرَة بْنِ مرَّة بْنِ كَثِير بْنِ غَنْم بْنِ دودَان ابن أَسَد بْنِ خزَيْمَة، أخْت زَيْنَب بنت جَحْش زَوْجَة رَسولِ اللهِ ﷺ.

وأمها أميمة بِنْت عَبْد المطَّلِب بْن هاشم بن عبد مناف بن قصي.

زوجة طلحة بن عبيد الله وأم ولده. (٢)

٥-عَبْد اللهِ بْن أَبَيِّ بْنِ سَلولٍ، وَكَانَ رَأْسَ الْمنَافِقِينَ وَإِلَيْهِ يَجْتَمِعونَ، وَهوَ الَّذِي قَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيخْرِجَنَّ الْأَعَزّ مِنْهَا الْأَذَلَّ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمصْطَلِقِ. وَفِي قَوْلِهِ ذَلِكَ، نَزَلَتْ سورَة الْمنَافِقِينَ بِأَسْرِهَا.

وتوفي سنة (٩هـ) (٣)

---

(١) - أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ٢صـ٦، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، جـ١صـ٣٤١، نشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، والإصابة في تمييز الصحابة جـ٢صـ٥٦، معجم الصحابة للبغوي، تحقيق: محمد الأمين بن محمد الجكني، جـ٢صـ١٥٠، نشر: مكتبة دار البيان – الكويت، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٢) - الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، جـ٨صـ١٩١، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٠هـ ١٩٩٠م. والتاريخ الكبير المعروف بتاريخ ابن أبي خيثمة، تحقيق: صلاح بن فتحي هلال، جـ٢صـ٨٢٢، نشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر – القاهرة، الطبعة: الأولى ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م. والمؤتَلِف والمختَلِف للدارقطني، تحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر، جـ٢صـ٨٠٨، نشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت الطبعة: الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

(٣) - السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، جـ١صـ٥٢٦، نشر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: الثانية ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م= =والسيرة النبوية وأخبار الخلفاء للبُستي،

من حديث السنة عن حادثة الإفك

قَالَتْ عَائِشَة: كَانَ رَسول اللهِ - ﷺ - إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيّهنَّ خَرَجَ سَهْمهَا خَرَجَ بِهَا رَسول اللهِ - ﷺ - مَعَه، قَالَتْ عَائِشَة: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا [(١)] فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْت مَعَ رَسولِ اللهِ - ﷺ - بَعْدَ مَا أنْزِلَ الحِجَاب، فَكنْت أحْمَل فِي هَوْدَجِي وَأنْزَل فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسول اللهِ - ﷺ - مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، دَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقمْت حِينَ آذَنوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْت حَتَّى جَاوَزْت الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْت شَأْنِي أَقْبَلْت إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْت صَدْرِي، فَإِذَا عِقْد لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ [(٢)] قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْت فَالْتَمَسْت عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤه، قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْط الَّذِينَ كَانوا يرَحِّلونِي، فَاحْتَمَلوا هَوْدَجِي [(٣)] فَرَحَلوه عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كنْت أَرْكَب عَلَيْهِ، وَهمْ يَحْسِبونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاء إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبلْنَ [(٤)] وَلَمْ يَغْشَهنَّ اللَّحْم، إِنَّمَا يَأْكلْنَ العلْقَةَ [(٥)] مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْم خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعوه وَحَمَلوه، وَكنْت جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثوا الجَمَلَ فَسَاروا، وَوَجَدْت عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الجَيْش، فَجِئْت مَنَازِلَهمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهمْ دَاعٍ وَلاَ مجِيب [(٦)] فَتَيَمَّمْت [(٧)] مَنْزِلِي الَّذِي

صحّحه وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، جـ١ صـ٣٨٣، نشر: الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤١٧هـ.

(١) – وهي غزوة بني المصطلق.

(٢) – حجر كريم منسوب لموضع باليمن يقال له ظفار.

(٣) – الهودج: بفتح الهاء والدال بينهما واو ساكنة وآخره جيم: محمل له قبة تستر بالثياب ونحوه، يوضع على ظهر البعير يركب عليه النساء ليكون أستر لهن.

(٤) – إي لم يكثر فيهن اللحم فيثقلن.

(٥) – بضم العين المهملة وسكون اللام ثم قاف البلغة من الطعام، قدر ما يمسك الرمق وتعلق النفس للازدياد منه، تريد القليل من الطعام.

(٦) – أي ليس بها أحد لا من يدعو، ولا من يرد جوابًا.

(٧) – قصدت.

كنْت بِهِ، وَظَنَنْت أَنَّهمْ سَيَفْقِدونِي فَيَرْجِعونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَة فِي مَنْزِلِي، غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْت، وَكَانَ صَفْوَان بْن المعَطَّلِ السّلَمِيّ ثمَّ الذَّكْوَانِيّ (١) مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ (٢) فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ (٣) فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْت بِاسْتِرْجَاعِهِ (٤) حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْت(٥) وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَوَاللهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلاَ سَمِعْت مِنْه كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وَهَوَى (٦) حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَه، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا (٧) فَقمْت إِلَيْهَا فَرَكِبْتهَا، فَانْطَلَقَ يَقود بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ موغِرِينَ (٨) فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ (٩) وَهمْ نزول، قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الإِفْكِ عَبْد اللهِ بْن أبَيٍّ ابْن سَلولَ، قَالَ عرْوَة: أخْبِرْت أَنَّه كَانَ يشَاع وَيتَحَدَّث بِهِ عِنْدَه، فَيقِرّه وَيَسْتَمِعه وَيَسْتَوْشِيهِ (١٠)

(١) – صَــفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ بْنِ رَحِيصَــةَ بْنِ خُزَاعِيِّ بْنِ مُحَارِبِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ هِلَالِ بْنِ فَالِجِ بْنِ ذَكْوَانَ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ بُهْثَةَ بْنِ سُلَيْمٍ. وكنيته أبو عمرو القيسي. استشهد في غزوة أرمينية سنة تسع عشرَة على عهد عمر بْن الْخطاب عن بضع وستين سنة. (تنظر ترجمته في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٢صـ٧٢٥، ومعجم الصحابة للبغوي، جـ٣صـ٣٣٨. تاريخ دمشق لابن عساكر، جـ٢٤صـ١٥٨، والثقات لابن حبان، جـ٣صـ١٩٢)

(٢) – لينظر من سقط له شيء يأتيه به.

(٣) – سواد إنسان: أي شخصه الذي لم تتبين ملامحه، ولا يظهر أهو رجل أو امرأة.

(٤) – أي بقوله إنا لله وإنا إليه راجعون قولها: ووالله ما يكلمني كلمة: عبرت بصيغة المضارع للإشارة إلى أنه استمر منه ترك المخاطبة لئلا يفهم – لو عبرت بصيغة الماضي – اختصاص النفي بحال الاستيقاظ.

(٥) – غطيت وجهي.

(٦) – نزل من بعيره عجلًا.

(٧) – أي وطئ صفوان يد الراحلة ليسهل الركوب عليها فلا يكون احتياج إلى مساعدة.

(٨) – مُوغِرِينَ: بضم الميم وكسر الغين المعجمة والراء المهملة أي نازلين في وقت الوَغْرة بفتح الواو وسكون الغين وهي شدة الحر عندما تكون الشمس في كبد السماء.

(٩) – توكيد لقوله: موغرين، فإن نحر الظهيرة أولها وهو وقت شدة الحر، ونحر كل شيء أوله كون الشمس لما بلغت غايتها في الارتفاف كونها وصلت إلى النحر الذي هو أعلى الصدر.

(١٠) – أي يستخرجه بالبحث عنه والاستقصاء، كما يستوشي الرجل فرسه؛ إذا ضرب جنبه بعقبيه أو بسوطه ليجري.

وَقَالَ عرْوَة أَيْضًا: لَمْ يسَمَّ مِنْ أَهْلِ الإِفْكِ أَيْضًا إِلّا حَسَّان بْن ثَابِتٍ، وَمِسْطَح بْن أثَاثَة، وَحَمْنَة بِنْت جَحْشٍ، فِي نَاسٍ آخَرِينَ لاَ عِلْمَ لِي بِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهم عصْبَة، كَمَا قَالَ الله تَعَالَى، وَإِنَّ كِبْرَ ذَلِكَ يقَال لَه: عَبْد اللهِ بْن أبَيٍّ ابْن سَلولَ، قَالَ عرْوَة: كَانَتْ عَائِشَة تَكْرَه أَنْ يسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّان، وَتَقول: إِنَّه الَّذِي قَالَ:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَه وَعِرْضِي لِعِرْضِ محَمَّدٍ مِنْكمْ وِقَاء [1]

قَالَتْ عَائِشَة: فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْت [2] حِينَ قَدِمْت شَهْرًا، وَالنَّاس يفِيضونَ [3] فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لاَ أَشْعر بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهوَ يَرِيبنِي [4] فِي وَجَعِي أَنِّي لاَ أَعْرِف مِنْ رَسولِ اللهِ -ﷺ- اللّطْفَ [5] الَّذِي كنْت أَرَى مِنْه حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخل عَلَيَّ رَسول اللهِ -ﷺ- فَيسَلِّم، ثمَّ يَقول: «كَيْفَ تِيكمْ» [6] ثمَّ يَنْصَرِف، فَذَلِكَ يَرِيبنِي وَلاَ أَشْعر بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْت حِينَ نَقَهْت [7] فَخَرَجْت مَعَ أمِّ مِسْطَحٍ [8] قِبَلَ المَنَاصِعِ [9] وَكَانَ متَبَرَّزَنَا [10] وَكنَّا لاَ نَخْرج إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكنفَ [11] قَرِيبًا مِنْ بيوتِنَا، قَالَتْ: وَأَمْرنَا أَمْر العَرَبِ الأوَلِ فِي البَرِّيَّةِ قِبَلَ الغَائِطِ، وَكنَّا نَتَأَذَّى بِالكنفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بيوتِنَا،

---

(١) – ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، شرحه وكتب هوامشه وقدم له أ/ عبدأ مهنا، صـ٢١، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

(٢) – أي مرضت.

(٣) – يتحدثون فيه وينشرونه ويشيعونه بين الناس.

(٤) – من الريب والريبة وهي الشك.

(٥) – تعني الرفق.

(٦) – تِيكُمْ: بالمثناة المكسورة وهي إشارة للمؤنث مثل ذاكم للمذكر.

(٧) – نَقَهْتُ: بفتح القاف وقد تكسر والأول أشهر، والناقه بكسر القاف الذي أفاق من مرضه ولم تتكامل صحته.

(٨) – واسمها سلمى، واشتهرت بكنيتها، وكانت من أشد الناس على مسطح حين تكلم مع أهل الإفك.

(٩) – المناصع: الأماكن الخالية الواسعة خارج المدينة، تقضى فيها الحاجة.

(١٠) – موضع قضاء الحاجة.

(١١) – جمع كنيف وهو الساتر، والمراد به هنا المكان المتخذ لقضاء الحاجة.

قَالَتْ: فَانْطَلَقْت أَنَا وَأمّ مِسْطَحٍ، وَهِيَ ابْنَة أَبِي رهْم بْنِ المطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأمّهَا بِنْت صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ، خَالَة أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنهَا مِسْطَح بْن أثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ المطَّلِبِ، فَأَقْبَلْت أَنَا وَأمّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أمّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا [١] فَقَالَتْ: تَعِسَ [٢] مِسْطَح، فَقلْت لَهَا: بِئْسَ مَا قلْتِ، أَتَسبِّينَ رَجلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ فَقَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ [٣] وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: وَقلْت: مَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، قَالَتْ: فَازْدَدْت مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْت إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسول اللهِ ـ ﷺ ـ فَسَلَّمَ، ثمَّ قَالَ: «كَيْفَ تِيكمْ»، فَقلْت لَه: أَتَأْذَن لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأرِيد أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسول اللهِ ـ ﷺ ـ فَقلْت لِأمِّي: يَا أمَّتَاه، مَاذَا يَتَحَدَّث النَّاس؟ قَالَتْ: يَا بنَيَّة، هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَة قَطّ وَضِيئَةً [٤] عِنْدَ رَجلٍ يحِبّهَا، لَهَا ضَرَائِر [٥] إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقلْت: سبْحَانَ اللهِ، أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاس بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْت تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْت لاَ يَرْقَأ [٦] لِي دَمْع وَلاَ أَكْتَحِل بِنَوْمٍ [٧] ثمَّ أَصْبَحْت أَبْكِي، قَالَتْ: وَدَعَا رَسول اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ[٨] الوَحْي، يَسْأَلهمَا وَيَسْتَشِيرهمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أسَامَة فَأَشَارَ عَلَى رَسولِ اللهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَم مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَم لَهمْ فِي نَفْسِهِ [٩] فَقَالَ أسَامَة: أَهْلَكَ [١٠] وَلاَ نَعْلَم إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيّ فَقَالَ:

(١) – المرط: كساء من صوف، أو خز يؤتزر به.

(٢) – تَعِسَ: بفتح المثناة وكسر العين المهملة وبفتحها أيضًا بعدها سين مهملة أي كب لوجهه أو هلك ولزمه الشر.

(٣) – هنتاه: أداة نداء بمعنى يا هذه.

(٤) – بوزن عظيمة من الوضاءة أي حسنة جميلة.

(٥) – جمع ضرة، وزوجات الرجل ضرائر؛ لأن كل واحدة تتضرر بالأخرى بالغيرة والقسْم.

(٦) – لا يرقأ: أي لا ينقطع.

(٧) – لا تنام.

(٨) – أي استبطأ نزوله.

(٩) – من الود.

(١٠) – أي الزم زوجك العفيفة اللائقة بك.

يَا رَسولَ اللهِ، لَمْ يضَيِّقِ الله عَلَيْكَ، وَالنِّسَاء سِوَاهَا كَثِير، وَسَلِ الجَارِيَةَ تَصْدقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسول اللهِ ﷺ بَرِيرَةَ [(١)] فَقَالَ: «أَيْ بَرِيرَة، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبكِ؟ ». قَالَتْ لَه بَرِيرَة: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا رَأَيْت عَلَيْهَا أَمْرًا قَطّ أَغْمِصه غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَة حَدِيثَة السِّنِّ، تَنَام عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِن [(٢)] فَتَأْكله، قَالَتْ: فَقَامَ رَسول اللهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ [(٣)] مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبَيٍّ، وَهوَ عَلَى المِنْبَرِ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ المسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرنِي مِنْ رَجلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْه أَذَاه فِي أَهْلِي، وَاللهِ مَا عَلِمْت عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَروا رَجلًا مَا عَلِمْت عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخل عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي». قَالَتْ: فَقَامَ سَعْد بْن معَاذٍ أَخو بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَقَالَ: أَنَا يَا رَسولَ اللهِ أَعْذِركَ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْت عنقَه، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ رَجل مِنَ الخَزْرَجِ، وَكَانَتْ أمّ حَسَّانَ بِنْتَ عَمِّهِ مِنْ فَخِذِهِ، وَهوَ سَعْد بْن عبَادَةَ، وَهوَ سَيِّد الخَزْرَجِ، قَالَتْ: وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْه الحَمِيَّة، فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْر اللهِ لاَ تَقْتله، وَلاَ تَقْدِر عَلَى قَتْلِهِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يقْتَلَ. فَقَامَ أَسَيْدبْن حضَيْرٍ، وَهوَ ابْن عَمِّ سَعْدٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْر اللهِ لَنَقْتلَنَّه، فَإِنَّكَ منَافِق تجَادِل عَنِ المنَافِقِينَ، قَالَتْ: فَثَارَ الحَيَّانِ الأَوْس، وَالخَزْرَج حَتَّى هَمّوا أَنْ يَقْتَتِلوا، وَرَسول اللهِ ﷺ قَائِم عَلَى المِنْبَرِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسول اللهِ ﷺ يخَفِّضهمْ، حَتَّى سَكَتوا وَسَكَتَ، قَالَتْ: فَبَكَيْت يَوْمِي ذَلِكَ كلَّه لاَ يَرْقَأ لِي دَمْع وَلاَ أَكْتَحِل بِنَوْمٍ، قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْت لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا، لاَ يَرْقَأ لِي دَمْع وَلاَ أَكْتَحِل بِنَوْمٍ، حَتَّى إِنِّي لَأَظنّ أَنَّ البكَاءَ فَالِق كَبِدِي، فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَة مِنَ الأَنْصَارِ فَأَذِنْت لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْن عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسول اللهِ ﷺ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي منْذ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لاَ يوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسول اللهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْد، يَا عَائِشَة، إِنَّه بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ

---

(١) - كانت تخدم السيدة عائشة ـ ﵂.

(٢) - الشاة التي تألف البيت ولا تخرج إلى المرعى.

(٣) - أي طلب من يعذره منه، أي ينصفه.

كنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيبَرِّئكِ الله، وَإِنْ كنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثمَّ تَابَ، تَابَ الله عَلَيْهِ»، قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسول اللهِ ﷺ مَقَالَته قَلَصَ [١] دَمْعِي حَتَّى مَا أحِسّ مِنْه قَطْرَةً، فَقلْت لِأَبِي: أَجِبْ رَسولَ اللهِ ﷺ عَنِّي فِيمَا قَالَ: فَقَالَ أَبِي: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقول لِرَسولِ اللهِ ﷺ فَقلْت لِأمِّي: أَجِيبِي رَسولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ: قَالَتْ أمِّي: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقول لِرَسولِ اللهِ ﷺ فَقلْت: وَأَنَا جَارِيَة حَدِيثَة السِّنِّ: لاَ أَقْرَأ مِنَ القرْآنِ كَثِيرًا: إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْت: لَقَدْ سَمِعْتمْ هَذَا الحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفسِكمْ وَصَدَّقْتمْ بِهِ، فَلَئِنْ قلْت لَكمْ: إِنِّي بَرِيئَة، لاَ تصَدِّقونِي، وَلَئِنِ اعْتَرَفْت لَكمْ بِأَمْرٍ، وَالله يَعْلَم أَنِّي مِنْه بَرِيئَة، لَتصَدِّقنِّي، فَوَاللهِ لاَ أَجِد لِي وَلَكمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يوسفَ حِينَ قَالَ: {فَصَبْر جَمِيل وَالله المسْتَعَان عَلَى مَا تَصِفونَ} [يوسف: ١٨] ثمَّ تَحَوَّلْت وَاضْطَجَعْت عَلَى فِرَاشِي، وَالله يَعْلَم أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَة، وَأَنَّ اللهَ مبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا كنْت أَظنّ أَنَّ اللهَ منْزِل فِي شَأْنِي وَحْيًا يتْلَى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ الله فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كنْت أَرْجو أَنْ يَرَى رَسول اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رؤْيَا يبَرِّئنِي الله بِهَا، فَوَاللهِ مَا رَامَ [٢] رَسول اللهِ ﷺ مَجْلِسَه، وَلاَ خَرَجَ أَحَد مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، حَتَّى أنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَه مَا كَانَ يَأْخذه مِنَ البرَحَاءِ [٣] حَتَّى إِنَّه لَيَتَحَدَّر مِنْه مِنَ العَرَقِ مِثْل الجمَانِ [٤] وَهوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الَّذِي أنْزِلَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَسرِّيَ [٥] عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ وَهوَ يَضْحَك، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «يَا عَائِشَة، أَمَّا الله فَقَدْ بَرَّأَكِ». قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أمِّي: قومِي إِلَيْهِ، فَقلْت: وَاللهِ لاَ أَقوم إِلَيْهِ، فَإِنِّي لاَ أَحْمَد إِلَّا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَتْ: وَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءوا بِالإِفْكِ عصْبَة مِنْكمْ﴾ العَشْرَ الآيَاتِ، ثمَّ أَنْزَلَ الله هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيق: وَكَانَ ينْفِق عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْه وَفَقْرِهِ: وَاللهِ لاَ أنْفِق عَلَى مِسْطَحٍ

---

(١) – أي استمسك نزوله فانقطع.

(٢) – أي فارق.

(٣) – البرحاء: أي شدّة الكَرب من ثِقَل الوَحي.

(٤) – الجمان: هو اللُّؤلؤ الصّغار وقيل حَبٌّ يتُّخذ من الفِضَّة أمثال اللؤلؤ.

(٥) – سُرِّي عنه: بضم المهملة وتشديد الراء المكسورة أي كشف عنه، وذهب عنه ما يجد.

شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أولو الفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿غفور رَحِيم﴾ [البقرة: ١٧٣]، قَالَ أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيق: بَلَى وَاللهِ إِنِّي لَأحِبّ أَنْ يَغْفِرَ الله لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ ينْفِق عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللهِ لاَ أَنْزِعهَا مِنْه أَبَدًا، قَالَتْ عَائِشَة: وَكَانَ رَسول اللهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لِزَيْنَبَ: «مَاذَا عَلِمْتِ، أَوْ رَأَيْتِ». فَقَالَتْ: يَا رَسولَ اللهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللهِ مَا عَلِمْت إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ عَائِشَة: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَعَصَمَهَا الله بِالوَرَعِ، قَالَتْ: وَطَفِقَتْ أخْتهَا حَمْنَة تحَارِب لَهَا، فَهَلَكَتْ، فِيمَنْ هَلَكَ." [١]

---

(١) - صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، باب: "حديث الإفك"، حديث رقم: (٤١٤١)، جـ٥صـ١١٦، نشر: دار طوق النجاة، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ.

الآيات موضوع البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)

سورة النور: ١١ – ٢٦

المبحث الأول

بلاغة النظم القرآني في آيات عقوبة من جاء بالإفك

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٨)

الآية الأولى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

من عطاء النظم الكريم:

إن الذين اتهموا عائشةَ أمَّ المؤمنين بالزنا هم جماعة منكم، فلا تظنوا هذه الحادثة شرًا لكم بل هي خير لكم؛ لأنها ميزت المنافقين من المؤمنين، وأظهرت كرامة المبَّرئين منها، ولكل امرئ منهم جزاؤه على مقدار اشتراكه في هذه الجريمة، والذي تَحَمَّل معظم ذلك الإثم والإفك منهم هو الذي بدأ بالخوض فيه، وحرض على إشاعته، وله حَظٌّ وافر فيه، له عذاب عظيم من الله تعالى.

والآية الكريمة طوت خمسة تراكيب نحاول إبصارها في نسقها من النظم، وقد وردت أربعة تراكيب منها بأساليب خبرية؛ تناسبًا مع سياق ذكر حادثة الإفك، والقص خبر لا إنشاء.

وهذا التلوين في التعبير حرك النص، وبث فيه الحياة، وملأه بالحيوية والنشاط.

التركيب الأول: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عصْبَة مِّنكمْ}

افتتاح الاستئناف ب (إن) المؤكدة وأسراره:

افتتح حديث الإفك بتلك الجملة الاستئنافية المؤكدة ب "إنَّ" المفيدة للتوكيد بدلالتها الصوتية؛ فالدلالة الصوتية لـ "إنَّ" تفيد التوكيد؛ "كما توحي به تلك الغنة التي تغن بمقدار حركتين، يحدث من خلال النطق بها نوع من الضغط والارتكاز، الذي يشبه الإصرار على تأكيد المعنى، وتثبيته لدى السامع"(١)

وباختصاصها بالدخول على الجملة الاسمية "والجملة الاسمية تفيد تأكيد المعنى، وتدل على معنى أوفى مما تدل عليه الجملة الفعلية؛ ولذلك كان تأثير الجملة الاسمية أقوى من تأثير الجملة الفعلية" (٢)؛ وذلك لدلالتها على الثبوت والدوام.

وقد خرج الخبر عن مقتضى الظاهر؛ إذ المجتمع الإسلامي في المدينة يعرف أن الخائضين بالإفك جماعة منهم، فمقتضى الظاهر أن يساق هذا الخبر بلا مؤكد لكنه أكّد ب (إنَّ) إيذانًا بخطر مضمونه، وأهمية مدخول (إنَّ) وفي التوكيد مزيد اعتناء بمدخوله، وتقريع وتوبيخ لهم؛ كيف يصدر هذا الخبر من عصبة منكم؟ من مجتمع الإسلام الأول في مدينة الإسلام الأولى؟

فقد أفاد التوكيد التنبيه ولفت الانتباه إلى حقيقة أولئك الذين جاءوا بالإفك وأنهم عصبة من أهل الإيمان.

تعريف المسند إليه بالموصولية وسره البلاغي:

عرف المسند إليه {الَّذِينَ} بالموصولية تنبيهًا على خطأ تلك العصبة في مجيئهم بالإفك، ولكي يكون وسيلة إلى إهانة المسند فلا شك أن الموصول كان وسيلة إلى ذكر صلته (المجيء بالإفك)، وذكرها كان وسيلة إلى إهانة المسند وهو: تلك العصبة الآثمة، كما أن فيه وسيلة إلى تحقير غير الخبر، وهو الإفك؛ ولذا عرف ب "ال".

هذا و (التعريف بالموصوليَّة مبحث دقيق المسلك، غريب النَّزعة يوقفكَ على دقائق من البلاغة،

(١) – الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، د/ عبد الحميد هنداوي، صـ٣٩، نشر: الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

(٢) – البلاغة العالية، علم المعاني د/ عبد المتعال الصـــعيدي، قدم له وراجعه وأعد فهارســـه الدكتور/ عبد القادر حسين، صـ ٥٨، نشر: مكتبة الآداب، الطبعة الثانية ١٩٩١م.

تؤنسك إذا أنتَ نظرتَ إليها بثاقب فكرك، وتثلج صدرك إذا تأمَّلتَها بصادق رأيك، فأسرار ولطائف التَعريف بالموصوليّة لا يمكن ضبطها وعد في كل مقام ما تراه مناسبًا.) (١)

سر التعبير بالمجيء:

و {جَاءوا بِالإِفْكِ} معناه: قصدوا واهتمّوا. وأصله: أن الذي يخْبِر بخبر غريب يقال له: جاء بخبر كذا؛ لأن شأن الأخبار الغريبة أن تكون مع الوافدين من أسفار أو المبْتَعِدِينَ عن الحيِّ قال تعالى: {إِنْ جاءَكمْ فاسِق بِنبَإٍ} [الحجرات: ٦]

ففي اختيار الفعل (جاء) دقة تتناسب مع دقة الإفك نفسها فالمجيء هو: "إتيان من أي وجه كان" (٢)

كما أن في "لفظ المجيءِ إشارة إلى أنَّهم أظهروه من عندِ أنفسِهم من غير أن يكون له أصل" (٣)

فـ"هذا المجيء صعب المسلك؛ لأن في حوكه جهدًا ومشقة وفي محاولة الوصول به إلى التصديق مشقة أكبر، فضلًا عن كونه مقيتًا مستنكرًا لا يقبله ولا يرضى به

أهل الصدق والإيمان، ويشق على النفس قبوله وسماعه". (٤)

كما أن حادثة الإفك فيها ثقل ومشقة على آل البيت.

وقد امتلك هذا الفعل مكان الصدارة في خبر الإفك؛ لأنه خبر غريب وضخم، يمسّ أكبر عدد من أفراد المجتمع.

وهذا لشدة التأكيد على أمرين:

الأول: أنه مختلق قطعًا؛ حيث إن الإفك معناه القلب، أي قلب الحقائق، واختلاق الأكاذيب.

---

(١) - جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، صــ١١٥، نشر: المكتبة العصرية، بيروت.

(٢) - الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، جـ١صـ٣٠٦.

(٣) - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، جـ٦صـ١٦٠.

(٤) - الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم للدكتور محمود موسى حمدان، صـ٣٤، نشر مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

والآخر: أن هذه الفرية قد تناقلها الناس وانتشرت بينهم، والتعبير بالفعل الماضي دلالة على القطع في وقوعه. (١)

وجملة {جَاءوا بِالإِفْكِ} تصوير لاختلاق الكذب بأنه شيء مادي جيء به على سبيل الاستعارة المكنية. فصور "الْإِفْكِ الذي جرى على ألسنة المؤتفكين، في صورة مجسّدة، وأنّه شيء مجلوب جاءوا به من عالم الظلام، وتعاملوا به، وتبادلوه، فيما بينهم، كما يتبادلون النقد الزائف: «جاءوا بِالْإِفْكِ» (٢)

فشبه اختلاق المؤتفكين لخبر الإفك، وجريانه على ألسنتهم، بقدوم المسافر بجامع بذل الجهد والمشقة، ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو المجيء، على سبيل الاستعارة المكنية، وإثبات لازم المشبه به للمشبه يعد استعارة تخييلية.

تعريف - الإِفْكِ- بالألف واللام وأسراره:

عرّف {الإِفْكِ} بالألف واللام المفيدة للجنس؛ لإفادة القصر، كأنه لا إفك إلا هو. " (٣) فهو أم الكذب، والبهتان، والتقول بغير حق، وفي ذلك زيادة تبشيع له في هذا المقام، حتى كأنه لا إفك إلا هو؛ لأنه في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهي من أحق الناس بالمدحة؛ لما كانت عليه من الحصانة والشرف والعفة والكرم، فمن رماها بسوء فقد قلب الأمر عن أحسن وجوهه إلى أقبح أقفائه، وترك تسميتها تنزيهًا لها عن هذا المقام، إبعادًا لمصون جانبها العلي عن هذا المرام" (٤)

وإنَّما وصفه الله بأنَّه إفك؛ لأنَّ المعروف من حالها رضي الله عنها خلاف ذلك. (٥)

فاصطفاء هذه الكلمة للدلالة على بطلان ما اختلقته تلك العصبة؛ لأن الإفك هو الكذب الذي خلا من أي شبهة ولو بعيدة.

(١) - تفسير سورة النور للدكتور عبد الرحيم فارس أبو علبة، صـ٦٨، نشر: دار المأمون، الطبعة الثانية ٢٠١٣م

(٢) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب، جـ٩ صـ١٢٣٠.

(٣) - محاسن التأويل للقاسمي، جـ٧صـ٣٣٦.

(٤) - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، جـ١٣ صـ٢٢١، نشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

(٥) - فتح القدير للشوكاني، جـ٤صـ١٤.

وجيء به مجرورًا بباء الإلصاق للدلالة على ملازمتهم للكذب والالتصاق به التصاق الجار بمجروره.

التعبير بالعصبة وأسراره البلاغية:

العصبة: اسم جمع لا واحد له من لفظه للجماعة من العشرة إلى الأربعين، وقيل: من الثَّلاثة إلى العشرة، وقيل: من عَشَرَةٍ إلى خَمْسَةَ عَشَرَ.

وأصل العصبة الفرقة المتعصبة قلت أو كثرت، وكثر إطلاقها على العشرة فما فوقها إلى الأربعين. (١)

وَالْجمع عصب وعَصَائِب.

وَإِنَّمَا سمِّيَتْ عصْبَةً لِأَنَّهَا قَدْ عصِبَتْ، أَيْ كَأَنَّهَا ربِطَ بَعْضهَا بِبَعْضٍ. (٢)

ومنه قوله تعالى: {وَنَحْن عصْبَة} (سورة يوسف الآية ٨) من العصب وهو الشد، لأن كل واحد منهم يشد الآخر ويؤازره.

فهي عصبة قد تداعت على الإفك، واجتمعت عليه، وأصبحت عصبة له، لما بينها من علائق التلاحم، والترابط، والتوافق، في فساد العقيدة، وضعف الإيمان، والانجذاب نحو الشرّ.

"والعَصَبِيّ مَنْ يعِين قومَه عَلَى الظّلْم (٣)

وفي التعبير بقوله تعالى: {عصْبَة} إشعار بأنهم جماعة لها غاياتها الخبيثة، التي تواطؤا على نشرها، وتكاتفوا على إشاعتها، بمكر وسوء نية." (٤) وبيان أن هؤلاء شرذمة قليلون، وأنهم هم الذين

(١) - ينظر: معجم مقاييس اللغة، مادة (ع ــ ص ــ ب). مختار الصحاح لزين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، مادة: (ع ـ ص ـ ب)، نشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(٢) – معجم مقاييس اللغة، مادة (ع ـ ص ـ ب).

(٣) – لسان العرب مادة: (ع ـ ص ـ ب) جـ١ صـ٦٠٦.

(٤) – التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للدكتور/ محمد سيد طنطاوي، جـ ١٠ صـ٩٣، ٩٤.

ينتسرونه[١]، لا أنهم عدد كثير من الناس. " [٢]

فتنكيره للتحقير لهم ولقولهم فـ"لَا يعْبَأ بِقَوْلِهِمْ فِي جَانِبِ تَزْكِيَةِ جَمِيعِ الْأُمَّةِ لِمَنْ رَمَوْهمَا بِالْإِفْكِ"[٣]

تقييد المسند بالوصف وأسراره:

قيد المسند {عصْبَة} بصفة كاشفة له وهي: {مِّنكمْ}، تَّعْجِيبًا من فِعْلِهِم، فمع أنهم عصْبَة من القوم إلا أنهم اختلقوا ما اختلقوا؛ فهو أشد نكْرًا، كما قال طَرَفَة:

وَظلْم ذَوِي الْقرْبَى أَشَدّ مَضَاضَةً... عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحسَامِ الْمهَنَّدِ [٤]

وفيه "إشارة إلى أنهم يعيشون بينكم، وأنهم يتغلغلون في أوساطكم، وحسبك أن مسطحًا هذا له بالصديق قرابة، وكان أبو بكر – رضي الله عنه – يعطيه من فضل ماله" [٥]

كما أن فيه "تَعْرِيضًا بِهِمْ بِأَنَّهمْ حَادوا عَنْ خلقِ الْإِسْلَامِ حَيْث تَصَدَّوْا لِأَذَى الْمسْلِمِينَ" [٦] ويوحي هذا التعريض بالتذكير بوجوب ترابط المسلمين؛ فترابط المسلمين ومحبتهم لبعضهم ومحبتهم لرسولهم تقتضي عدم إيذائه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) – ينشرونه.

(٢) – تفسير المراغي، جـ١٨صـ٨٣.

(٣) – التحرير والتنوير، جـ١٨صـ١٧١.

(٤) – ديوانه، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، صــ٢٧، نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة ١٤٢٣ هــ ٢٠٠٢ م. ذوي القربى: الأهل. المضاضة: الحرقة والحزن. الوقع: الضرب. الحسام المهند: السيف المصنوع في الهند.

(٥) – زهرة التفاسير لأبي زهرة، جـ١٠ صـ ٥١٥٤.

(٦) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٧١.

التركيب الثاني: {لا تَحْسَبوه شَرًّا لَّكم}

الفصل وسره البلاغي:

لما كان التركيب الأول مقتضيًا للاهتمام بشأن تلك العصبة وما جاؤا به، أتبعه قوله: {لا تَحْسَبوه شَرًّا لَّكم} تحقيرًا لأمرهم مخاطبًا الخلص وخصوصًا النبي – ﷺ – وأبا بكر وعائشة وأمها، وصفوان بن المعطل – رضي الله عنهم – وبذلك أزال ما حَصَلَ فِي نفوسِ الْمؤْمِنِينَ مِنَ الْأَسَفِ مِنِ اجْتِرَاءِ عصْبَةٍ عَلَى هَذَا الْبهْتَانِ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْقِصَّة فقال: {لَا تَحْسَبوه شَرًّا لَكمْ بَلْ هوَ خَيْر لَكمْ}

وجاءت هذه الجملة مفصولة عن سابقتها لما بينهما من كمال الانقطاع بلا إيهام؛ لاختلاف الجملتين في الخبرية والإنشائية؛ فالأولى خبرية لفظًا ومعنى، وهذه إنشائية لفظًا ومعنى، إيذانًا بتغاير المعنيين، وبيانًا لقوة الحكم الذي تضمنته الجملة وغرابته، وكأنه شيء منفصل عن هذا الإفك الذي جاءوا به.

وفي التركيب من التسرية عنهم ما يزيل أثر كل حزن.

وفيه حسن التأديب لعامة المؤمنين بطلب ظن الخير وعدم المسارعة إلى سوء الظن، والتحرز عن الخوض في كبريات التهم بلا علم.

من أسرار النهي عن ظن أن الإفك شر:

والنهي مؤذن بأن ظن الإفك شرًا كان شائعًا بين المسلمين، فدعاهم إلى الإقلاع عنه.

وإنما ظن المؤمنون الإفك شراً لـ "أَنَّه أَحْدَثَ فِي نَفَرٍ مَعْصِيَةَ الْكَذِبِ وَالْقَذْفِ وَالْمؤْمِنونَ يَوَدّونَ أَنْ تَكونَ جَمَاعَتهمْ خَالِصَةً مِنَ النَّقَائِصِ (فَإِنَّهمْ أَهْل الْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ) فَلَمَّا حدث فيهم هَذَا الِاضْطِرَاب حَسِبوه شَرًّا نَزَلَ بِهِمْ." (١) وَالشَّرّ حقيقته: مَا زَادَ ضَرّه عَلَى نَفْعِهِ. (٢)

التعبير بصيغة الجمع وسره البلاغي:

مع أن المقذوفين بالإفك اثنان هما عائشة وصفوان – رضي الله عنهما – إلا أن القرآن الكريم عبر بصيغة الجمع في

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٧٢.

(٢) – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، جـ١٢صـ١٩٨.

قوله {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ}؛ وذلك ليشمل الخطاب رسول الله ﷺ وأبا بكر وعائشة وصفوان رضي الله عنهم، وكل من ساءه ذلك من المؤمنين" [١] وجاءت صيغة الجمع بضمير الخطاب؛ لأن في مواجهة المخاطب دلالة على خطر الأمر وشدته.

وجاء المسند إليه واو جماعة للدلالة على خطر الأمر وشدته؛ إذ في مواجهة المخاطب دلالة على ذلك. واللام فيه لام الاستحقاق وهي الواقعة بين معنى وذات. [٢]

التركيب الثالث: {بَلْ هوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}

الفصل وسره البلاغي:

وبعد أن نهى عن ظن أَنْ يكون الإفك شَرًّا للمؤمنين أثبت أنه خير لهم فأتى بـ (بل) المفيدة للإضراب.

وجاء هذا التركيب مفصولًا عن سابقه لما بينهما من كمال الانقطاع بلا إيهام؛ لاختلاف التركيبين في الخبرية والإنشائية؛ فالأول إنشائي لفظًا ومعنى، وهذا خبري لفظًا ومعنى؛ إيذانًا بتغاير المعنيين وضديتهما، وبيانًا لقوة الحكم الذي تضمنته الجملة.

اسمية الجملة ودلالتها على استمرار الخيرية:

و(بل) هنا حرف ابتداء؛ لوقوع الجملة بعدها؛ فالجملة بعدها استئناف لا محل لها؛ فأفادت الإضراب عما قبلها على جهة الإبطال. [٣]

وبين ابن عاشور السر في إيثار الجملة الاسمية فقال: "وعدل عَن أَنْ يَعْطِفَ {خَيْرًا} عَلَى {شَرًّا} بحرف

---

(١) – ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جـــ٣صـــ٢١٧، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز٤/ ١٦٩، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي، جـ ١٤ صـ ٣٢٠. وروح البيان لإسماعيل حقي، جـ٦صـ١٢٦، نشر: دار الفكر – بيروت.

(٢) – ينظر: شرح التصريح على التوضيح لخالد الأزهري، جـــ١صـــ ٦٤٢، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

(٣) – ينظر: تمهيد القواعد بشـــرح تســـهيل الفوائد لناظر الجيش، دراســـة وتحقيق: أ. د. علي محمد فاخر وآخرين، جـ٧صـ ٣٤٨٥، نشر: دار السلام، القاهرة – الطبعة: الأولى ١٤٢٨هـ.

(بَلْ) فيقال: بَلْ خَيْرًا لَكمْ، إِيثَارًا لِلْجمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الثَّبَاتِ وَالدَّوَامِ." [١] والاستمرار حملًا لهم على إنفاذ مطلوبه، وهو النهي عن أن يظنوا أن في الإفك شرًا لهم؛ فالتعبير بالجملة الاسمية هنا أقوى من التعبير بالجملة الفعلية، وفى هذا إشارة إلى تغلب جانب الخير على جانب الشر.

وجاء الجار والمجرور {لكم} إبلاغًا في التأكيد، وكرر؛ للدلالة على مزيد عناية بخطابهم المباشر؛ تشريفًا لهم.

وبين الخير والشر تضاد قوى المعنى وأكده؛ إذ حث على المقارنة بين الشر الحاصل من حديث الإفك والخير الذي جنوه منه، وحث المؤمن على ألا يأخذ الأمور على ظاهرها، فقد يكون الأمر في ظاهره شرا وهو يحمل معه الخير العظيم.

وقد رشح هذا الطباق بالجناس اللاحق بين لفظي (لكم) و (لكل) في قوله تعالى: {لكل امري ما اكتسب من الإثم} فكسي الكلام طلاوة وبهاء، والمعنى وضوحًا وبيانًا.

وجه الخيرية:

وكان الإفك خيرًا؛ لأن الخير حقيقته: ما زاد نَفْعه على ضَرِّه. [٢] والبلاء النَّازل على الأولياء خير؛ لأنَّ ضرره من الألم قليل في الدنيا، وخيره هو الثواب الكثير في الأخرى.

وبين علماؤنا الأجلاء [٣] وجه الخيرية فقالوا: إنَّ فِيهِ مَنَافِعَ كَثِيرَةً؛

- إِذْ يمَيَّز بِهِ الْمؤْمِنونَ الْخلَّص مِنَ الْمنَافِقِينَ.
- وَتشْرَع لَهمْ بِسَبَبِهِ أَحْكَام تَرْدَع أَهْلَ الْفِسْقِ عَنْ فِسْقِهِمْ.
- وَتَتَبَيَّن مِنْه بَرَاءَة فضَلَائِهِمْ؛ فعائشة ﵂ا حازت به شهادة ببراءتها يقينًا، وظهرت كرامتها على اللهِ

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨ صـ١٧٢.

(٢) – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، جـ١٢ صـ١٩٨.

(٣) – ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز٤/ ١٦٩، التحرير والتنوير جـ١٨ صـ١٧٢. والتفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور/ محمد سيد طنطاوي، جـ١٠ صـ٩٤.

ﷻ بإنزالِ ست عشرة آيةً في نزاهةِ ساحتِها وتعظيمِ شأنِها وتشديدِ الوعيدِ فيمَن تكلَّم فيها والثَّناءِ على مَنْ ظنَّ بها خيرًا، وأصبح التصديق ببراءتها وطهارتها جزءًا من إيمان كل مؤمن، ومن شك فيه فقد كفر؛ إذ شك في خبر الله ﷻ.

- وَيَزْدَادُ الْمنَافِقونَ غَيْظًا، وَيصْبِحونَ محَقَّرِينَ مَذْمومِينَ، وَلَا يَفْرَحونَ بِظَنِّهِمْ حزْنَ الْمسْلِمِينَ، فَإِنَّهمْ لَمَّا اخْتَلَقوا هَذَا الْخَبَرَ مَا أَرَادوا إِلَّا أَذَى الْمسْلِمِينَ.
- وَتَجِيء مِنْه معْجِزَات بِنزولِ هَذِهِ الْآيَاتِ بِالْإِنْبَاءِ بِالْغَيْبِ. " (١)

وكفى بشهادته جل وعلا بأنه خير لا شر فيه.

التركيب الرابع: ثم بين– سبحانه– ما أعده لهؤلاء الخائضين في حديث الإفك من عقاب فقال:{لِكلِّ امْرِئٍ مِّنْهم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ}

لكل امرئ من الذين جاءوا بالإفك جزاء ما اكتسب من الإثم، بقدر ما خاض فيه مختصًا به.

وهذا وعيد للذين جاءوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا من ذلك، وقد حد النبي ﷺ منهم جماعة.

وفي هذه التركيب دلالة على عدل الله ﷻ، وأنه سيؤاخذ الإنسان بما اكتسب واجترحت يداه، وما نطق به لسانه.

وأنه ينبغي للإنسان أن يراقب الله ﷻ، فلا يصيب إثمًا؛ لأن إصابة الإثم ستكون وبالًا على صاحبها؛ لأنه مرهون بها، وسيلحقه تبعة ما اكتسب واجترح من الإثم.

الفصل وسره البلاغي:

فصل هذا التركيب عن سابقه لما بينهما من شبه كمال الاتصال؛ إذ الإخبار بأن في حديث الإفك خيرًا للمؤمنين، يثير سؤالا عن أثره على المتحدثين به، فوقع هذا التركيب جوابًا عن هذا السؤال {لِكلِّ امْرِئٍ مِّنْهم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ}.

---

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨ صـ١٧٢.

تقديم المسند وسره البلاغي:

بني هذا التركيب على أسلوب التقديم والتأخير المفيد للقصر، وفي تقديم المسند -هنا- تشويق إلى المسند إليه، وقد زاد من التشويق -هنا- توسط الجار والمجرور {منهم} بين المسند والمسند إليه المحذوف؛ فـ "مَعْلوم أَنَّ نَفْسَ مَا اكْتَسَبوه لَا يَكون عقوبَةً، فَالْمرَاد لَهمْ جَزَاء مَا اكْتَسَبوه مِنَ الْعِقَابِ فِي الْآخِرَةِ وَالْمَذَمَّةِ فِي الدّنْيَا" (١)

السر في التعبير بـ (اللام) في مقام (على):

عبر بـ (اللام) في مقام (على) إشارة إلى أن هذا حق لازم لصاحبه لا مفر من استيفائه، "والتنصيص على أن الجزاء لاحق لكل منهم أشفى للنفس من أن يلحق بجملتهم." (٢)

سر التعبير بـ -اكتسب-:

كَسَبَ مستعمل في الخير؛ لأن حصوله مغن عن الدَّلالة على اعْتِمَال فيه، ففعل الخير يتمشى وطبيعة النفس، وينسجم مع ذراتها وتكوينها، فالذي يقدِم على عمل الخير لا يقاوم شيئًا في نفسه، ولا يعارض ملكَة من مَلَكَاته، أو عادة من العادات، وإشارة إلى أنّ الثواب يكتب بمجرد فعل الخير بل ونيته.

واكْتَسَبَ مستعمل في المَآثِم ونحوها؛ لأنها تدل على اعْتِمَال وقصْد فهو أبلغ في التَّرْتِيب، وإشارة إلى أنَّ الإثم يرتب على ما حصل فيه تصميم وعزم قويّ صدقه العمل بما فيه من الجد والنشاط. (٣)

فالاكتساب لا يقع إلا في الذنب والاثم؛ لثقل بنائه وكلفته.

فـ "عادةً ما يستخدم الفعل (كَسَبَ) المجرد في الخير، والفعل اكتسب المزيد الدال على الافتعال في

---

(١) - مفاتيح الغيب جـ٢٣صـ٣٣٨.

(٢) - شفاء الصدور بتفسير سورة النور للدكتور/ إبراهيم الجبالي، صـ٦٠، نشر: مطبعة الإرشاد، الطبعة الأولى ١٩٣٦م.

(٣) - ينظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان، جـ٨ صـ٢٠، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور، جـ١٣صـ٢٢٣، وتفسير الشعراوي، جـ١٦ صـ ١٠٢١٥، نشر: مطابع أخبار اليوم. والإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن، د/ محمود توفيق محمد سعد صـ٣٥٤.

الشر، لماذا؟ قالوا: لأن فِعْل الخير يتمشى وطبيعة النفس، وينسجم مع ذراتها وتكوينها، فالذي يقدِم على عمل الخير لا يقاوم شيئًا في نفسه، ولا يعارض ملكة من مَلَكَاته، أو عادة من العادات... فالأمر الطبيعي تستجيب له النفس تلقائيًا، أمّا الخطأ والشر فيحتاج إلى افتعال، لذلك عبَّر عن المكر والتبييت والكيد ب (اكتسب) الدال على الافتعال" (١)

وما في الاسم الموصول {ما} من إبهام أفاد تفخيم وتهويل هذا الذنب.

وفي التركيب إيجاز بالحذف؛ حيث حذف المضاف، والتقدير جزاء ما اكتسب.

التركيب الخامس: {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَه مِنْهمْ لَه عَذَاب عَظِيم}

والذي تَحَمَّل معظم ذلك الإثم والإفك منهم هو الذي بدأ بالخوض فيه، وحرض على إشاعته، وله حَظٌ وافر فيه، أو نقول: هو ضالع فيه، له عذاب من الله تعالى عظيم لا يقادر قدره.

ووصل التركيب بما قبله لاتحادهما في الخبرية والمناسبة في المعنى؛ فقد اتحد مقصدهما وهو تبيين عقاب المتحدثين في الإفك.

السر في تعريف المسند إليه بالموصولية:

عرف المسند إليه بالموصولية إيماءً إلى وجه بناء الخبر؛ فإن تولي كبر هذا الإفك وأصل القضية وحرص على إذاعتها وتبنى إشاعتها، الذي دلت عليه الصلة {تَوَلَّى كِبْرَه مِنْهمْ} قد أومأ إلى وجه بناء الخبر، وأنه من جنس العذاب والنكال.

فـ "من فوائد تعريف المسند إليه بالموصولية الإيماء أو الإشارة إلى الجانب الدلالي الذي بني عليه الخبر من مدح أو ذم، أو عقاب أو ثواب، أو غير ذلك، بحيث إن الفطن يمكنه التوصل إلى خاتمة الكلام في ضوء تدبر فاتحته وتفهمها، ويدرك ما تومئ إليه المقاصد" (٢)

ويكون ذلك حين تتضمن صلة الموصول ما يدل على نوع الخبر على الجملة، بحيث يكون في مقدور

---

(١) - تفسير الشعراوي، جـ١٦صـ ١٠٢١٥.

(٢) - علم الجمال اللغوي للدكتور/ محمود سليمان ياقوت، جـ ١ صـ ٣٧٨، نشر دار المعرفة الجامعية ١٩٩٥م.

المتلقي تحديد نوعه العام بقليل من التأمل" (١)

والمقصود -هنا- عبد الله بن أبيّ، الذي قاد هذه الحملة، وتولّى القيام بها وترويجها. "وذلك أنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير، أن الذي بدأ بذكر الإفك، وكان يجمع أهله ويحدثهم، عبد الله بن أبي ابن سلول، وفعله ذلك على ما وصفت كان توليه كبر ذلك الأمر" (٢)

وثبت ذلك فيما أخرجه الشيخان في صحيحيهما (٣)

والوعيد بأنَّ له عذابًا عظيمًا يقتضي أنَّه عبد الله بن أَبَيّ بن سَلول، وفيه إِنْبَاء بأَنَّه يموت على الكفر فيعَذَّب العذاب العظيم في الآخرة وهو عذاب الدَّرْك الأسفل من النَّار، وأمَّا بقيَّة العصبة فلهم من الإِثْم بمقدار ذنبهم، وفيه إيماء بأنَّ الله يتوب عليهم إِنْ تابوا كما هو الشَّأْن في هذا الدِّين. " (٤)

التعبير بـ (التولي) ولطائفه :

وَتَوَلِّي الْأَمْرِ: مبَاشَرَة عَمَلِهِ وَالتَّهَمّم بِهِ وإشاعته.

وفي اختيار لفظة {تَوَلَّى} -هنا- مالا يخفي من إمعان المذكور في تبني قضية الإفك وإعلانها وتزيينها.

واستعير التولي هنا للابتداء والإشاعة على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

حيث شبهت تلك الأمور بالتولي، ثم حذف المشبه واستعير له لفظ المشبه به، ثم اشتق من التولي تولى بمعنى ابتدأ وأشاع، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

---

(١) - المفصل في علوم البلاغة العربية المعاني والبيان والبديع د/ عيسى علي العاكوب، صـ١١٥.

(٢) - جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، جـ١٩صـ١٢٠.

(٣) - ينظر: صحيح البخاري، كِتَابُ الشَّهَادَاتِ، بَابُ تَعْدِيلِ النِّسَاءِ بَعْضِهِنَّ بَعْضًا، جـ٣صـ ١٧٣، بَابُ حَدِيثِ الإفك، جـ٥صـ١١٦، كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ {لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ، بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا}، جـ٦صـ١٠١. وصحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب التوبة، باب «في حديث الإفك، وقبول توبة القاذف»، جـ٤صـ ٢١٢٩، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٤) - التحرير والتنوير جـ١٨ صـ١٧٣.

الغاية من الإضافة في -كبره- :

والكِبْر أَشَدّ الشَّيْءِ وَمعْظَمه [١] وهو في الآية معظم الإثم والإفك، وإنما أضاف الكبر إليه، لأنه كان مبتدئًا به، ولشدّة رغبته في إشاعة تلك الفاحشة، لا جرم حصل له من العقاب مثل ما حصل لكل من قال ذلك، لقوله عليه الصلاة والسلام «مَنْ سَنَّ سنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرهَا وَوِزْر مَنْ عَمِلَ بِهَا» [٢]

وقد تطابق اللفظ بحركاته مع معناه "فقد بدأ بالكاف الشديدة التي لا يمر معها نفس حتى تناسب الأمر وشدته، وقد أتت مكسورة حتى توافق كسرة النفوس الطاهرة التي ارتابت فيها القلوب والأفئدة، وقد توسط اللفظ حرف الباء الشديدة أيضا توافقًا مع توالي الشدة، ومن شدة التناسب أن الباء عند خروجها ينحط اللسان فلا ترتفع له قامة، ويحبس النفس فلا يقدر على الخروج لشدتها، وتهتز لها الأوتار الصوتية جهرًا، إذا كان هذا حالها في خروجها المعتاد، فما بالك إذا لحقها اضطراب فقلقل ساكنها، إنه وعيد شديد لا يدرى كنهه، ويختم اللفظ بالراء المفخمة التي تحمل في طياتها هي الأخرى معنى التكرير؛ لتناسب تكرار الإفك على الألسنة وانتشاره وتنقله بينهم، وقد ذاع أمره من تنقله وتكراره، فناسب اللفظ المعنى، وطابق المراد، مما أكد جلل المصاب، وعظم وقعه وسوء عاقبته" [٣]

تنكير المسند إليه ووصفه بالعظم وسره البلاغي :

جاء المسند إليه {عذاب} نكرة، ووصف بالعظم {عظيم} لإفادة التهويل؛ ففيه من تهويل الخطب ما لا يخفى. [٤]؛ فلما عظم الجرم وعظم الخطب كان العذاب كذلك عظيمًا، لا يحيط به الوصف.

وفي قوله له عذاب عظيم قصر حيث قصرت الآية الكريمة العذاب العظيم على من تولى كبره.

---

(١) – لسان العرب مادة: (ك ـ ب ـ ر)

(٢)– شرح السنة للبغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – محمد زهير الشاويش، جـ٥صـ ٤٤٣، نشر: المكتب الإسلامي – دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ١٩٨٣م.

(٣) – بلاغة الصوت القرآني في سورة النور وأثره في الفكر المقاصدي حادثة الإفك من سورة النور أنموذجًا، للدكتوره منال السيد مصباح، صـ٦٥٩، بحث منشور في مجلة الزهراء، العدد الثلاثون.

(٤) – ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، جـ٦ صـ١٦١ .

الآية الثانية:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾

تهدينا الآية الكريمة إلى الموقف الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن عند وقوع مثل هذا الحادث، ويكمن هذا في أمرين:

أولهما: حسن الظنّ بالمؤمنين المقذوفين والمؤمنات المقذوفات، فيظنّ بهم خيرًا، ولا يصدّق ما يقال فيهم من السوء والفحشاء.

والآخر: إنكار هذا الإفك أو القذف، وردّه، وتكذيبه وتوبيخ وتعنيف صاحبه. (١)

وتعد الآية الكريمة علاجًا نفسيًا ناجعًا للشخصية المؤمنة، وصقلها بمشاعر ضبط النفس، وعدم انجرارها وراء الأخبار الكاذبة.

وهي مستأنفة للشروع في زجر الخائضين في الإفك وتوبيخهم على ما أرجفوا به.

وجاءت الآية الكريمة في تركيبين اثنين:

التركيب الأول: {لَوْلا إِذْ سَمِعْتموه ظَنَّ الْمؤْمِنونَ وَالْمؤْمِنَات بِأَنْفسِهِمْ خَيْرًا}

التركيب اسْتِئْنَاف الغرض منه تَوْبِيخ عصْبَة الْإِفْكِ مِنَ الْمؤْمِنِينَ وَتَعْنِيفِهِمْ، بَعْدَ أَنْ سَمَّاه إِفْكًا. (٢)

ابتدأ النظم الكريم بـ{لَوْلا} للدلالة على مقت تصرفهم وقت سماعهم خبر الإفك، وإنكاره وتوبيخهم عليه، والتنديد بهم.

فلولا "تنديمية يتولد منها تحضيض وأمر بالغ بإيجاد ما قبح فوته والتفريط فيه" (٣) الحث على الشيء وتأكيد طلبه، وترك ضده، "تأكيداً للتوبيخ والتقريع ومبالغة في معاتبتهم وشروعـًا في توبيخهم وتعييرهم

(١) – ينظر: دروس تربوية في سورة النور للدكتور ناصر بن صالح المزيني، صـ ٥٩.

(٢) – ينظر: التحرير والتنوير جـ١٨ صـ١٧٣.

(٣) – صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، للدكتور/ محمود توفيق محمد سعد، صـ١٢٦، نشر: مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

وزجرهم بتسعة زواجر. الأول هذا؛ والثاني (لولا جاءوا عليه)، والثالث (ولولا فضل الله). والرابع (إذ تلقونه)، والخامس (ولولا إذ سمعتموه)، والسادس (يعظكم الله)، والسابع (إن الذين يحبون) والثامن (ولولا فضل الله عليكم) والتاسع (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان -إلى سميع عليم-" (١)

ولولا في الجميع للشرط عدا هذا الموضع والذي يليه، وهو قوله تعالى: {ﭹ ﭺ ﭻ ﭼﭽ} (النور: ١٣)

السر في توسط الظرف بين لولا وفعلها:

توسط الظَّرف {إذ} بين لولا وفعلِها؛ اهتمامًا بمدلول ذلك الظرف؛ وتنبيهًا على أنهم كان من واجبهم أن يَطْرق ظن الخير قلوبهم بمجرد سماعِ الخير، وألا يكتفوا بذلك بل يجب أن يتبعوه برد الفِرْيَة على صاحبها، ويوبخوه عليها فور سماعها، وإشارة إلى أن عدم القيام بهذا الواجب رأسًا في غاية ما يكون من القباحة والشَّناعة.

يقول الزمخشري: "فإِنْ قلتَ: أيّ فائدةٍ في تقديمِ الظرف حتى أَوْقعَ فاصلًا؟ قلت: الفائدة فيه بيان أَنَّه كان الواجب عليهم أن يتفادَوْا أولَ ما سمعوا بالإِفْك عن التكلّم به، فلمَّا كان ذِكْر الوقتِ أَهَّم وَجَبَ تقديمه" (٢)

الالتفات وسره البلاغي:

في التركيب التفات من الخطاب في {سَمِعْتموه} إلى الغيبة في {ظَنَّ الْمؤْمِنونَ} فَلَمْ يَجِئ التّركيب ظَنَنْتمْ بِأَنْفسِكمْ خَيْراً وَقلْتمْ، مبالغة في التوبيخ؛ فإِنَّ الالتفات ضَرْب من الاهتمام بالخبر، وهذا توبيخ على عدم إعمالهم النَّظَرَ في تكذيب قول ينادي حَاله بِبهْتَانه وعلى سكوتِهِمْ عليه وعدم إِنْكَاره.

وليصَرِّح بلفظ الإيمان الدال على الأخوة في الدين؛ إشعارًا بأن الاشتراك في الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين وأَنْ لا يصَدِّقَ أحد قالةً في أخيه.

وفيه تَنْبِيه على أنَّ حق المؤمن إذا سمع قَالَةً في مؤمن أنْ يبني الأمر فيها على الظَّن لا على الشَّك ثم ينظر

(١) – فتحُ البيان في مقاصد القرآن لأبي الطيب محمد صديق القِنَّوجي، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، جـ٩ صـ١٨٢، نشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت: ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

(٢) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جـ٣صـ٢٢٠.

في قرائن الأحوال وصلاحِيَّة المقام فإذا نسِب سوء إلى من عرْف بالخير ظنَّ أنَّ ذلك إِفْك وبهْتَان حتى يتَّضح البرهان.

وفيه تَعْرِيض بأنَّ ظَنَّ السَّوء الذي وقع هو من خصال النِّفاق التي سرت لبعض المؤمنين عن غرور وقِلَّة بَصَارَة فكفى بذلك تَشْنِيعًا له. (١)

ولا يخفى ما وراء الالتفات من بلاغة تطري نشاط السامع، وتبعد عنه الرتابة والسآمة والملل، بل تثير فيه التشويق الذي هو غرض من أغراض التعبير الجيد.

فالالتفات في الآية: "تلوين للخطاب وصرْف له عن رسول الله ﷺ وذويهِ إلى الخائضينَ بطريق الالتفاتِ لتشديد ما في لولا التحضيضية من التَّوبيخِ ثمَّ العدول عنه إلى الغيبةِ في قوله تعالى: {ظَنَّ المؤمنون والمؤمنات بِأَنفسِهِمْ خَيْراً} لتأكيدِ التَّوبيخِ والتَّشنيعِ لكنْ لا بطريقِ الإعراضِ عنهم وحكايةِ جناياتِهم لغيرهم على وجهِ المثابة بل بالتَّوسلِ بذلكَ إلى وصفهم بما يوجب الإتيانَ بالمحضض عليه ويقتضيهِ اقتضاءً تامًّا ويزجرهم عن ضدِّه زَجْراً بليغاً فإنَّ كونَ وصفِ الإيمانِ ممَّا يحملهم على إحسان الظَّنِّ ويكفّهم عن إساءته بأنفسِهم أي بأبناءِ جنسِهم النَّازلين منزلة أنفسهم" (٢)

وفي استخدام أسلوب الغيبة تصوير لخبر الإفك بأنه ضرب من الغيبة في مسألة السماع.

يقول القشيري: "استماع الغيبة نوع من الغيبة، بل مستمع الغيبة شرّ المغتابين إذ بسماعه يتمّ قصد صاحبه، وإذا سمع المؤمن ما هو سوء قَالَةٍ في المسلمين- مما لا صحّة له في التحقيق- فالواجب الردّ على قائله، ولا يكفي في ذلك السكوت من دون النكير، ويجب ردّ قائله بأحسن نصيحة، وأدقّ موعظة،

---

(١) – ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جـ٣ صـ٢١٨، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، جـ٨ صـ٣٩٠، نشر: دار القلم، دمشق، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، جـ٤ص١٠١، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم جـ٦ صـ١٦١. والتحرير والتنوير جـ١٨ صـ١٧٥.

(٢) – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم جـ٦ صـ١٦١.

ونوع تشاغل عن إظهار المشاركة له فيما يستطيب من نشره من إخجال لقائله موحش، فإن أبى إلا انهماكًا فيما يقول فيرد عليه بما أمكن؛ لأنه إن لم يستح قائله من قوله فلا ينبغي أن يستحي المستمع من الرّدّ عليه" (١)

والخطاب بهاتين الآيتين لجميع المؤمنين حاشا من تولى الكبر ويحتمل دخولهم في الخطاب، وفي هذا عتاب للمؤمنين أي كان الإنكار واجبًا عليهم، والمعنى أنه كان ينبغي أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم وإذا كان ذلك يبعد فيهم فكانوا يقضون بأنه من صفوان وعائشة أبعد لفضلهما، وروي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته، وذلك أنه دخل عليها فقالت له يا أبا أيوب أسمعت ما قيل؟ فقال نعم وذلك الكذب أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟ قالت لا والله، قال فعائشة والله أفضل منك، قالت أم أيوب نعم فهذا الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله المؤمنين إذ لم يفعله جميعهم" (٢)

التعبير بـ{المؤمنون والمؤمنات} وسره البلاغي:

عبر القرآن الكريم ب {المؤمنون والمؤمنات} دون (المسلمون والمسلمات) للدلالة على "استقرار الإيمان في قلوبهم؛ فهو مدح لهم، مع شدة توبيخ وتنديم، أما أَمَا وقد اكتمل إيمانكم فلا يصدق أحدكم في أخيه ما يؤذيه أو يساء بسببه، ومما زاد في التوبيخ والتنديم قوله تعالى: {بأنفسهم} فهي كلمة فاقت كل معاني الوحدة والتماسك والتآلف والمودة والتآخي والحب و.. وإلخ، وليس أقرب للمرء من نفسه"(٣)

السر في النص على المؤمنات:

لم يتبع القرآن الكريم هنا طريق التغليب ويكتف بذكر {المؤمنون} ونص على {الْمُؤْمِنَات} لبيان أن هذا الإفك وقع من ذكور المؤمنين وإناثهم، وأنه ينبغي أن يحسن جميع المؤمنين ذكورهم وإناثهم الظن

---

(١) – لطائف الإشارات للقشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، جــ٢صـــ٥٩٩، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة.

(٢) – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، جـ٤ صـ١٧٠.

(٣) – بلاغة الصوت القرآني في سورة النور وأثره في الفكر المقاصدي حادثة الإفك من سورة النور أنموذجًا صـ٦٦٢.

بإخوانهم المؤمنين.

ولأن "النساء كثيرًا ما يقعن في هذا النوع من الغيبة من غير احتراس ولا تحفظ، ألم تر إلى أن حمنة بنت جحش وقعت في إشاعة هذا الإفك تحسب أن في ذلك ما يرضي أختها أم المؤمنين زينب، وهذه كانت برة تقية، كانت تنفي عن عائشة ولا تقر كلام أختها، بل ترده، وبالتعبير بالوصف في المؤمنين والمؤمنات يشير – سبحانه – إلى أن الإيمان يقتضي ذلك، والله على كل شيء شهيد." (١)

وفي التنبيه على الوصف المقتضي لحسن الظن تخويف للذي ظن السوء من سوء الخاتمة.

التعبير بالأنفس وسره البلاغي:

ذكر الفخر الرازي (٢) رحمه الله في بيان المراد من قوله تعالى: {بِأَنْفسِهِمْ} وجهين:

الأول: أن المراد أَنْ يَظنَّ بَعْضهمْ بِبَعْضٍ خَيْرًا؛ فالكلام على تقدير حذف "مضاف أي ظن بعض المؤمنين والمؤمنات بأنفس بعضهم الآخر." (٣)

وَنَظِيره قَوْله: {وَلا تَلْمِزوا أَنْفسَكمْ} [الحجرات: ١١] وقوله تعالى: {فَاقْتلوا أَنْفسَكمْ} [الْبَقَرَةِ: ٥٤] وقوله تعالى: {فَإِذا دَخَلْتمْ بيوتًا فَسَلِّموا عَلى أَنْفسِكمْ} [النّورِ: ٦١] وَمَعْنَاه أَيْ: بِأَمْثَالِكمْ مِنَ الْمؤْمِنِينَ الَّذِينَ هـمْ كَأَنْفسِكمْ.

والتعبير بالأنفس عن الآخرين ينطوي على أبعد النكت مرمى وأكثرها حفولًا بالمعاني السامية، والسر في هذا التعبير: تعطيف المؤمن على أخيه وتوبيخه على أن يذكره بسوء، وإجراء التوبيخ على النفس بدلًا من أن يذكره بسوء وذلك أدعى إلى اصطناعه وجعله محمولًا على الموالاة والاصطفاء؛ وذلك بتصويره بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة، ولا شيء أشنع من ذلك.

(١) – زهرة التفاسير جـ١٠ صـ٥١٥٨.

(٢) – ينظر: مفاتيح الغيب، جـ٢٣ صـ٣٤١.

(٣) – عِنَايَةُ القَاضِـي وكِفَايَةُ الرَّاضِـي عَلَى تفْسيرِ البَيْضَـاوي للشـهاب الخفاجي، جــ٦ص ٣٦٢، نشـر: دار صـادر – بيروت.

والآخر: أَنَّه جَعَلَ الْمؤْمِنِينَ كَالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ فِيمَا يَجْرِي عَلَيْهَا مِنَ الْأمورِ فَإِذَا جَرَى عَلَى أَحَدِهِمْ مَكْروه فَكَأَنَّه جَرَى عَلَى جَمِيعِهِمْ.

فقَوْله: {بِأَنْفسِهِمْ خَيْرًا} وَقَعَ فِي مقَابَلَةِ {ظَنَّ الْمؤْمِنونَ وَالْمؤْمِنات} فاقتضي التَّوْزِيعَ، أَيْ ظَنَّ كلّ وَاحِدٍ مِنْهمْ بِالْآخَرِينَ مِمَّنْ رموا بِالْإِفْكِ خَيْرًا إِذْ لَا يَظنّ الْمَرْء بِنَفْسِهِ.

ونظيره ما روي عَنِ النّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أنه قَالَ: قَالَ رَسول اللهِ ﷺ: «مَثَل الْمؤْمِنِينَ فِي تَوَاصلِهِمْ وَتَراحمِهِمْ وَمَا جَعَلَ الله بَيْنَهمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ؛ إِذَا وَجِعَ بَعْضه وَجِعَ كلّه بِالسَّهَرِ والْحمَّى» (١)

وما روي عن أبي برْدَةَ قال عليه السلام: «إِنَّ المؤْمِنَ لِلْمؤْمِنِ كَالْبنْيَانِ يَشدّ بَعْضه بَعْضًا» (٢)

وهذا من بديع الكلام، وقد وقع في القرآن كثيرًا، وهو بحسب الظاهر يقتضي أن كل واحد يظن بنفسه خيرًا، وليس بمراد. بل أن يظن بغيره ذلك.

وفيه أسمى ألوان الدعوة إلى غرس روح المحبة والمودة والإخاء الصادق بين المؤمنين، حتى لكأن الذي يظن السوء بغيره إنما ظنه بنفسه." (٣)

كما أن فيه "إشارة إلى تلك الرابطة القوية الوثيقة، التي تربط المؤمنين جميعًا بعضهم ببعض، بحيث يكون ما يعرض لأحدهم من عارض يمسّه، في نفسه، أو دينه، أو مقامه في مجتمعه- هو مصاب يصاب به المجتمع المؤمن كلّه.. فالمؤمنون كما وصفهم القرآن الكريم «إِخْوَة» كما يقول سبحانه: {إِنَّمَا الْمؤْمِنونَ إِخْوَة} (سورة الحجرات: ١٠) ثم هم كما وصفهم الرسول الكريم «جسد» بحكم هذا الرباط الأخوة الذي يربطهم، ويشد بعضهم إلى بعض.. يقول الرسول- صلوات الله وسلامه عليه «مثل

---

(١) - المُعْجَمُ الكَبِير للطبراني، تحقيق: فريق من الباحثين بإشــراف وعناية: د/ ســعد بن عبد الله الحميد ود/ خالد بن عبد الرحمن الجريسي، مرويات عبد الملك بن عمير، عن النعمان بن بشير، حديث رقم: (١٥١)، جـــ٢١ صـــ١٢٤، الطبعة: الأولى: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦ م.

(٢)- صحيح البخاري، باب: تَشْبِيكِ الأَصَابِعِ فِي المَسْجِدِ وَغَيْرِهِ، حديث رقم: (٤٨١)، جـ١ صـ١٠٣.

(٣) - التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور/ محمد سيد طنطاوي، جـ١٠ صـ٩٥.

المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر». " (١)

ونكر كلمة {خيرًا} لإفادة الإطلاق والعموم والشمول؛ فهو خير مطلق في كل الأمور.

التركيب الآخر: {وَقَالوا هَذَا إِفْك مبِين}

وصل هذا التركيب بسابقه لاتحادهما في الخبرية والمناسبة في المعنى، وهو ما يعرف بالتوسط بين الكمالين.

وفيه "تَشْرِيع لِوجوبِ الْمبَادَرَةِ بِإِنْكَارِ مَا يَسْمَعه الْمسْلِم مِنَ الطَّعْنِ فِي الْمسْلِمِ بِالْقَوْلِ كَمَا ينْكِره بِالظَّنِّ وَكَذَلِكَ تَغْيِير الْمنْكَرِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ" (٢)

وختمت الآية بهذا التركيب لأن الإفك؛ "خَبَر عَنْ أَمْرٍ بَاطِنٍ مِمَّنْ لَمْ يشَاهِدْه، وَذَلِكَ أَكْذَب الْأَخْبَارِ وَشَرّ الْأَقْوَالِ حَيْث اسْتطِيلَ بِهِ الْعِرْض الَّذِي هوَ أَشْرَف الْمحَرَّمَاتِ، وَمَقْرون فِي تَأْكِيدِ التَّحْرِيمِ بِالْمهجَاتِ. " (٣)

وللدلالة على أن الإنكار لا بد أن يتواطأ عليه القلب واللسان، ولا يكفي أحدهما دون الآخر، فذاك حظ الضمير وهذا حظ اللسان.

وَالْمبِين: الْبَالِغ الْغَايَةَ فِي الْبَيَانِ، أَيِ الْوضوحِ كَأَنَّه لِقوَّةِ بَيَانِهِ قَدْ صَارَ يبين غَيره. (٤)

وتذييل التركيب بلفظ {مبين} للدلالة على ظهور الأمر ووضوحه، وأنه لا شك فيه ولا مرية، حتى إنه لفرط وضوحه وجلائه كأنه يبين غيره.

---

(١) – التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب، جـ٩صـ١٢٤٠.

(٢) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٧٥.

(٣) – أحكام القرآن لابن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، جـ٣صـ٣٦٥، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

(٤) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٧٥.

تعريف المسند إليه بـ (اسم الإشارة) وسره البلاغي:

عرف المسند إليه ب (اسم الإشارة) في قوله تعالى: {وَقَالوا هَذَا إِفْك مبِين} ولم يعرف بالضمير فيقال وقالوا هو إفك مبين؛ وذلك لإبراز المسند إليه وتمييزه وتحديده وإسناد صفة الذم له؛ فيقع الحكم عليه بأنه إفك مبين بعد هذا التمييز والتجسيد؛ وفي ذلك قدر كبير من قوة الحكم وصدق اليقين، مع أنه إفك مبين.

وذلك "لأن اسم الإشارة بطبيعة دلالته يفيد تحديد المراد منه تحديدًا ظاهرًا، وتمييزه تمييزًا تامًا، ولأن المتكلم قد يقصد إلى هذا التحديد ليحضر المسند إليه في ذهن السامع ويميزه تمام التمييز؛ وذلك عندما يكون معنيًا بالحكم الذي يريد إضافته إليه، ويجد في إبرازه وزيادة تأكيده. " (١)

ولا شك أن إبرازه أمام العين، يفيد قوة الحكم وصدق اليقين بأنه (إفك مبين)

فتحديد المسند إليه وتمييزه بالإشارة لا يقف عند المدح، بل يأتي أيضا حين يراد بإسناد صفات ذم له، وذلك على نحو ما نجد في هذه الآية الكريمة، فمجيء المسند إليه اسم إشارة كان لتمييزه وتحديده، وإسناد صفة الذم إليه" (٢)

واسم الإشارة القريب هنا للتحقير، كأنه يصوره بصورة الأمر الذي لا يتشوف إليه، ولا تتبعه النفوس استقصاءً، وذلك إنما يكون في القريب المشاهد" (٣) .

(١) – علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، للدكتور/ بسيوني عبد الفتاح فيود، جـ١ صـ١٢٤، نشر: مكتبة وهبة.

(٢) – بلاغة التراكيب دراسة في علم المعاني، للدكتور/ توفيق الفيل، صـ٩٧، نشر: مكتبة الآداب.

(٣) – – شفاء الصدور بتفسير سورة النور صـ٦٠.

الآية الثالثة:

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

أَي: هلَّا جاءَ أصحاب الإِفك بأَربعة شهداءَ عدول يشهدون على ما زعموه في شأْن عائشة، فحيث لم يأْتوا بالشهداء، فهم عند الله وفي حكمه كاذبون، فكيف تصدقونهم وهم مخالفون لشريعة الله ومنافقون.

والآية إما أن تكون من "جملة المقول؛ تقريرًا لكونه كذبًا فإن ما لا حجة عليه كذب عند الله أي في حكمه، ولذلك رتب الحد عليه" (١) وفيها حث للسامعينَ على إلزامِ المسمِّعين وتكذيبهم أي تكذيب ما سمعوه منهم بقولهم هذا إفك مبين، وتوبيخهم على تركه، أي هلاَّ جاءَ الخائضونَ بأربعةِ شهداءَ يشهدون على ما قالوا (٢)

وإما أن تكون كلامًا مبتدأ مسوقًا من جهتِهِ تعالَى للاحتجاج على كذبهم بكونِ ما قالوه قولًا لا يساعده الدَّليل أصلاً" (٣)

وحوت الآية الكريمة تركيبين اثنين:

التركيب الأول: {لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ}

استئناف ثَانٍ لتوبيخ وتعنيف الذين سمعوا الإفك ولم يسارعوا في دفعه وإنكاره وتكذيبه لعدم وجود بينة عليه.

يقول الزمخشري: "هذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك فلم يَجِدّوا في دفعه وإنكاره، واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع: من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة، والتنكيل به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين، فكيف بأمّ المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق حرمة رسول الله ﷺ

(١) – أنوار التنزيل وأسرار التأويل، جـ٤صـ١٠١.

(٢) – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، جـ٦صـ١٦١.

(٣) – المصدر السابق جـ٦صـ١٦٢.

وحبيبة حبيب الله؟ " [١]

وطلب الشهادة -هنا- مما يؤكد فظاعة الأمر الذي اختلقوه، وأنه من القذف الذي لا يحل أن يقدم عليه امرؤ أو أن يؤخذ به إلا إذا كان له من الحجج ما يناسب عظمه وفداحته.

وفصل التركيب عن سابقه لشبه كمال الانقطاع؛ فهذه الجملة سبقت بجملتين يصح عطفها على الأولى منهما؛ لوجود المناسبة، ولا يصح عطفها على الثانية؛ لفساد المعنى؛ إذ لو جاء العطف هنا لتوهم أنها تطلب من المسلمين أن يأتوا بأربعة شهداء لإثبات قولهم الموضح في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٌ مُّبِينٌ ﴾

دلالة لولا البلاغية:

لولا تنديمية يتولد منها تحضيض وأمر بالغ بإيجاد ما قبح فوته، والتفريط فيه...، وهو ألا يقولوا بغير دليل قاهر لا ينتقض" [٢]

والتعدية ب {على} في قوله تعالى: {لَوْلا جَاءوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شهَدَاءَ} معناها إثبات الإفك إذ الضمير يعود عليه، وإثبات الإفك المراد موضوعه، وهو رمى المحصنة الكريمة بنت الكريم وزوج الكريم، وفي ذلك إشارة إلى أنه غير ممكن، ف " لَوْلَا " تدل مع التحضيض على الاستبعاد، بل الاستحالة لمقام موضوع الافتراء" [٣].

فـ "هذا الأمر لم يشهده أحد.. فقد كانت أم المؤمنين، وكان معها صفوان بن المعطّل.. ولم يكن أحد غيرهما، وذلك على ما رأى المسلمون وغير المسلمين جميعا.. فأي شاهد يمكن أن يجيء ويقول: إنه شهد شيئا كان بين أم المؤمنين وصفوان؟" [٤]

---

(١) - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جـ٣صـ٢١٩.

(٢) - صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم صـ١٢٦ . باختصار.

(٣) - زهرة التفاسير جـ١٠صـ ٥١٥٩.

(٤) - التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب جـ٩صـ١٢٤١ .

التركيب الآخر: {فَإِذْ لَمْ يَأْتوا بِالشّهَدَاءِ فَأولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هم الْكَاذِبونَ}

تقرير لكذبهم – فإن ما لا حجة عليه كذب عند الله أي في حكمه؛ ولذلك رتب الحد عليه – وتعليل له، لا أنه تعليق من الخدع بكلامهم في غير مظان الخديعة.

فـ"إذ لم يكن من الممكن الإتيان بأربعة شهداء، يشهدون على هذا المنكر، لأنه إن أمكن اصطياد أربعة ممن يشهدون عليه زورًا، فإن الزور سينفضح، حيث ستختلف أقوالهم، وتضطرب ألوان الصورة التي يصورون بها الواقعة المزورة، لأن كلًا منهم يصورها حسب ما تمليه عليه أوهامه وخيالاته، وهيهات أن يلتقي وهم مع وهم، أو يجتمع خيال إلى خيال، وإن أحكموا فيما بينهم تدبير الأمر، وعملوا على سد الخلل فيه!! " (١)

وإنّما قيل {بِالشّهَدَاء} لزيادة التَّقريرِ" (٢)

فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ إِذَا لَمْ يَأْتوا بِالشّهَدَاءِ فَإِنَّه يَجوز كَوْنهمْ صَادِقِينَ كَمَا يَجوز كَوْنهمْ كَاذِبِينَ فَلِمَ جَزَمَ بِكَوْنِهِمْ كَاذِبِينَ؟ وَالْجَوَاب مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّل: أَنَّ الْمرَادَ بِذَلِكَ الَّذِينَ رَمَوْا عَائِشَةَ خَاصَّةً وَهمْ كَانوا عِنْدَ الله كَاذِبِينَ الثَّانِي: الْمرَاد فَأولَئِكَ عِنْدَ الله فِي حكْمِ الْكَاذِبِينَ فَإِنَّ الْكَاذِبَ يَجِب زَجْره عَنِ الْكَذِبِ، وَالْقَاذِف إِنْ لَمْ يَأْتِ بِالشّهودِ فَإِنَّه يَجِب زَجْره فَلَمَّا كَانَ شَأْنه شَأْنَ الْكَاذِبِ فِي الزَّجْرِ لا جَرَمَ أَطْلِقَ عليه لفظ الكاذب مجازًا" (٣)

السر في التعبير بالظرف «إذ»:

عبر بالظرف «إذ» بدلا من أداة الظرف الشرطية «إذا» أو «إن» كما يبدو من ظاهر النظم للدلالة على وقوع الخبر وتحققه، فكذبهم ثابت محقق، وهم موسومون عند الله بالكذب؛ إذ لم يستطيعوا الإتيان ببينة على ادعائهم.

(١) – التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب جـ٩صـ١٢٤١.

(٢) – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم جـ٦صـ١٦١.

(٣) – مفاتيح الغيب جـ٢٣صـ٣٤٢.

تعريف المسند إليه ب (اسم الإشارة) وسره البلاغي:

عرف المسند إليه {أولَئِكَ} بـ(اسم الإشارة) في هذا التركيب لاستحضارهم بصفاتهم التي بها استوجبوا تسجيل الكذب عليهم، بل انحصار الكذب فيهم، وفي ذلك زيادة تمييز لهم بهذه الصفة ليحْذَر الناس أمثالهم.

فـ "هذه الإشارة تفيد أن هذه الحال وهي الرمي من غير بينة سبب للحكم عليهم بالكذب الملازم الثابت فيهم الذي يمنع أن يقبل منهم قول بعد ذلك" (١)

وفي "هذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك فلم يجدوا في دفعه وإنكاره، واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع: من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة، والتنكيل به إذا قذف امرأة محصنة من عرض نساء المسلمين، فكيف بأمّ المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق حرمة رسول الله ـ ﷺ ـ وحبيبة حبيب الله؟ (٢)

وهذا كله، من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه، من دون نصاب الشهادة بالصدق" (٣)

وفي اختيار اسم الإشارة الدال على البعيد {أولَئِكَ} نكتة لطيفة تدل على ذمهم وبعدهم وحقارتهم؛ أي: من اتهم وليس عنده أربعة شهود على تهمته، ولو كان صادقًا، فإنه يعد في حكم الشرع –بحسب الظاهر– من الكاذبين." (٤) وفيه إيذان بغلوهم في الفساد وبعد منزلتهم في الشر" (٥)

وأكد ذلك بالضمير {هم الكاذبون}؛ ليبين كمالهم في الكذب.

---

(١) – زهرة التفاسير، جـ١٠صـ ٥١٥٩.

(٢) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ٣صـ٢١٩.

(٣) – تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٥٦٣.

(٤) – تفسير سورة النور لمحمد بن محمد المختار الشنقيطي، جـ٤صـ١١، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

(٥) – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم جـ٦صـ١٦١.

التقييد بالظرف (عند الله) وسره البلاغي:

قيد التركيب بالظرف المضاف إلى اسم الجلالة (عند الله) لزيادة تحقيق كذب الذين جاءوا بالإفك فهم في علم الله الأزلي لا يتعدون هذه الحقيقة، وعلم الله لا يكون إلا موافقًا لمآله، فهم ليسوا كاذبين عند الناس وحسب، بل إنهم في حقيقة الأمر كاذبون فعلًا؛ وذلك للتشنيع عليهم فمن كان كاذبًا عند الله فمتى يصدق؟ وعند من يكون صادقًا.

يقول الطاهر بن عاشور: "وَالتَّقْيِيد بِقَوْلِهِ: عِنْدَ اللهِ لِزِيَادَةِ تَحْقِيقِ كَذِبِهِمْ، أَيْ هوَ كَذِب فِي عِلْمِ اللهِ فَإِنَّ عِلْمَ اللهِ لَا يَكون إِلَّا موَافِقًا لِنَفْسِ الْأَمْرِ. وَلَيْسَ الْمرَاد مَا ذَكَرَه كَثِير مِنَ الْمفَسِّرِينَ أَنَّ مَعْنَى عِنْدَ اللهِ فِي شَرْعِهِ لِأَنَّ ذَلِكَ يصَيِّره قَيْدًا لِلِاحْتِرَازِ. فَيَصِير الْمَعْنَى: هم الْكَاذِبونَ فِي إِجْرَاءِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ. وَهَذَا ينَافِي غَرَضَ الْكَلَامِ وَيجَافِي مَا اقْتَرَنَ بِهِ مِنْ تَأْكِيدِ وَصْفِهِمْ بِالْكَذِبِ عَلَى أَنَّ كَوْنَ ذَلِكَ هوَ شَرْع اللهِ مَعْلوم مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمونَ الْمحْصَناتِ ثمَّ لَمْ يَأْتوا بِأَرْبَعَةِ شهَداءَ فَاجْلِدوهمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً﴾ [النّور: ٤] إِلَى قَوْلِهِ: فَأولئِكَ عِنْدَ اللهِ هم الْكاذِبونَ. فَمَسْأَلَةَ الْأَخْذِ بِالظَّاهِرِ فِي إِجْرَاءِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مَسْأَلَة أخْرَى لَا تؤْخَذ مِنْ هَذِه الْآيَةِ" (١)

صيغة الحصر ولطائفها البلاغية:

حصر القرآن الكريم الكذب في أولئك الذين جاؤا بالإفك {فَأولئِكَ عِنْدَ اللهِ هم الْكاذِبونَ} للمبالغة في كذبهم كأنَّ كذبهم لقوَّته وشناعته لا يعَدّ غيرهم من الكاذبين كاذبًا فكأنهم انحصرت فيهم ماهية الموصوفين بالكذب؛ فهؤلاء البعداء كَامِلونَ فِي الْكَذِبِ مخصوصون به عن سواهم ثابت دائم فيهم.

---

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٧٦.

الآية الرابعة:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

لما بين لهم بإقامة الدليل على كذب الخائضين في هذا الكلام أنهم استحقوا الملام وكان ذلك مرغبًا لأهل التقوى بين أنهم استحقوا بالتقصير في الإنكار عموم الانتقام في سياق مبشر بالعفو فيه جانب من مظاهر فضله ورحمته بالمؤمنين فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

ولولا تفضّل الله عليكم ببيان الأحكام، ورحمته لكم في الدنيا بعدم التعجيل بالعقاب، والإمهال للتوبة، وفي الآخرة بالعفو والمغفرة – لنزل بكم عذاب عظيم على هذه التهمة الشنيعة.

"وهذا يدل على أن الله تبارك وتعالى يغار على عرض المؤمن، وأنه ينبغي للمؤمنين أن يكفّوا عن نقل الشائعات والعناية بالتهم وإلا أصابتهم العقوبة من الله والعياذ بالله" (١)

كما تحمل الآية الكريمة في طياتها البشرى للمسلمين بالمغفرة والرحمة في الدنيا والآخرة على ما فرطوا في جنب رسول الله ﷺ في حديث الإفك، ولا غرابة في هذه المغفرة فهم أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان الذين غفر الله لهم ورضي عنهم.

ووصلت الآية الكريمة بسابقتها؛ لاتفاقهما في الإنشائية والمناسبة؛ فمقصودهما توبيخ المتحدثين في الإفك وترغيبهم في التوبة، يقول البقاعي: "ولما بين لهم بإقامة الدليل على كذب الخائضين في هذا الكلام أنهم استحقوا الملام وكان ذلك مرغبا لأهل التقوى، بين أنهم استحقوا بالتقصير في الإنكار عموم الانتقام في سياق مبشر بالعفو" (٢)

لولا ودلالتها:

ولولا هنا: "دالة على امتناع الشيء لوجود غيره، ... وتلزم حينئذ الابتداء، فلا تدخل إلا على المبتدأ، ويكون الخبر بعدها محذوفًا وجوبًا، ولابد لها من جواب فإن كان مثبتًا قرن باللام غالبًا، وإن كان منفيًا

---

(١) – تفسير سورة النور لمحمد بن محمد المختار الشنقيطي جـ٤ صـ١٢.

(٢) – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور جـ١٣٥ صـ٢٣٠.

بما تجرد عنها غالبًا، وإن كان منفيًا بلم لم يقترن بها. " [١]

وهي للربط والتعليق، فقد دلت على ربط عدم مس العذاب بوجود الفضل والرحمة.

"وَالْفَضْل فِي الدّنْيَا يَتَعَيَّن أَنَّه إِسْقَاط عقوبَةِ الْحَدِّ عَنْهمْ بِعَفْوِ عَائِشَةَ وَصَفْوَانَ عَنْهمْ، وَفِي الْآخِرَةِ إِسْقَاط الْعِقَابِ" [٢]

والخطاب للمؤمنين دون رأس المنافقين.

ومن جمال التركيب الطباق بين الدنيا والآخرة الذي بين المعنى ووضحه.

واللف والنشر المرتب؛ ففضله في الدنيا ورحمته في الآخرة، ويجوز جعل كليهما لكليهما [٣]

حذف جواب -لَوْلاَ- وسره البلاغي:

والحذف في الآية في موضعين خبر لولا وجوابها، وحذف جواب {لَوْلاَ} للتهويل؛ وذلك حتى يذهب الوهم في تقديره كل مذهب؛ فيكون أبلغ في

البيان وأبعد في التهويل والزجر [٤]

كما أنه يثير في نفس هؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة الرهبة من عذاب الله، الذي يشير إليه ما بعد لولا" [٥] والذي سوغ الحذف طول الكلام بالمعطوف، والطول داع للحذف [٦] وتقديره: لعجل لكم

(١) – شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، جـ٤صـ٥٥، نشر: دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة: العشرون ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، بتصرف.

(٢) – التحرير والتنوير جـ١٨ صـ١٧٦.

(٣) – ينظر: حاشية القونوي على تفسير البيضاوي لعصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي، تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، جـ١٣صـ ٢٩٠، نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٤) – صفوة التفاسير جـ٢صـ٣٠٢.

(٥) – من بلاغة القرآن لأحمد بدوي، صـ١٠١، نشر: نهضه مصر – القاهرة: ٢٠٠٥م.

(٦) – البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ٣ صـ١٨٧، الطبعة: الأولى ١٣٧٦هـ١٩٥٧م.

العذاب بسبب افتراء الكذب والتقول بما لم يكن [(١)]

التعبير بـ (المس) وسره البلاغي:

"مَسَّكم" أصاب جلودكم كما يمس الحديد المحْمَى الجسم الحي فيؤلمه.

وعبر بالمس لتهويل شأن العذاب، وأنه يكفي في الإزعاج به مسه، لا لتهوين الإصابة به.

والتَعبير بالمس دون غيره تخفيف من اللهَ في العتاب [(٢)]

والكلام على الاستعارة التصريحية التبعية؛ حيث شبهت الإصابة بالمس ثم حذف المشبه واستعير له لفظ المشبه به، ثم اشتق من المس بمعنى الإصابة مس بمعنى أصاب على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وقد صورت هذه الاستعارة التصاق العذاب العظيم بأجسادهم وتمكنه منها، فيستشعرون مدى رحمة الله وفضله حيث عفا عنهم ويلهثون له شكرًا.

واقتران المس بزمنه، ينبئ عن أن هذا الذي كان في الظرف، أو كان الظرف وعاء له، عن أنه هو السبب لولا فضل الله ورحمته [(٣)]

التعبير بـ (الإفاضة) وسره البلاغي:

والإفاضة الخوض مع الإكثار، كأنهم زادوا في حديثهم حتى فاض من جوانبهم، كما يفيض الماء من جوانب إنائه.

والكلام على الاستعارة التصريحية التبعية؛ حيث شبه الخوض في حديث الإفك ونشره مع الإكثار منه بالإفاضة، ثم حذف المشبه واستعير له لفظ المشبه به، ثم اشتق من الإفاضة بمعنى الخوض في الحديث

---

(١) – الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلويّ، جـ٢صـ١١٣، نشر: المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٣هـ.

(٢) – خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، جـ١ صـ٢٧٧، نشر: مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(٣) – زهرة التفاسير جـ ١٠صـ ٥١٦٠.

مع الإكثار أفاض على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وكأن الحديث يسيل سيلًا زائدًا عن حده، وبغير غاية.

وقد صورت هذه الاستعارة كثرة الحديث في حادثة الإفك بين المسلمين، وفي ذلك لوم لهم وتشنيع عليهم، وإيماء إلى أن هذا لم يكن ينبغي منهم، فقد فاض وزاد عن حده.

تنكير المسند إليه وسره البلاغي:

ورد المسند إليه: {عَذَاب} منكرًا؛ لإفادة التفخيم والتهويل، أي عذاب لا تدركونه اليوم، وسترونه، ووصفه بالعظم ليكافئ عظم الخطب الذي وقعوا فيه.

الآية الخامسة:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ﴾

ثم بين سبحانه وقت حلول العذاب وزمان تعجيله مصورًا أحوالهم في تلك الفترة العصيبة من تاريخ الدعوة الإسلامية فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ﴾

فقد تناقلتم هذه التهمةَ بألسنتكم وأشعتموها بينكم، وتخوضون فيما لم يكن لكم علم بصحته، وتحسبَون أن هذا الأمر هين بسيط لا يعاقِب الله عليه، مع أنه أمر خطير عظيم يعاقِب عليه الله أشد العقاب.

وفصلت الآية الكريمة عن سابقتها؛ لأنها جاءت موضحة ومبينة لها ففصل بينهما لكمال الاتصال.

وجاءت الآية الكريمة في أربعة تراكيب خبرية:

التركيب الأول: {إِذْ تَلَقَّوْنَه بِأَلْسِنَتِكمْ}

التعبير بـ (التلقي) وسره البلاغي:

التلقي هو أن يأخذه بعضهم من بعض يقال: تَلَقَّى الْقَوْلَ وَتَلَقَّنَه وَتَلَقَّفَه وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: {فَتَلَقَّى آدَم مِنْ

رَبِّهِ كَلِماتٍ} (الْبَقَرَةِ: ٣٧) [١]

وتَلَقِّي الشيء: قبوله في استعجال من دون روية وتثبت، فهو مجرد تلق من دون وعي وتدبر، ولم يقف الأمر عند ذلك، أي: لم تتلقوه فقط، وإنما كان ذلك منكم على سبيل الحكاية أيضًا، فلم يقتصر الإنسان على سماعه.

فكأنه عبَّر باللازم، أي أنه يعد الإنسان متلقيًا للشيء إذا قاله وحكاه بعد سماعه، فمن قيل له كلام فقال ذلك الكلام، فإنه يعد راضيًا بذلك الكلام الذي ألقى.) [٢]

ولذلك حذفت التاء؛ إذ الأصل تتلقونه بتاءين، فحذف إحدى التاءين وأبقى الأخرى للدلالة على سرعة تلقي الخبر وتفشيه بينهم بالباطل.

فهذا اللفظ موحٍ؛ فهو يشعر بتجشم المشاق والتكلف من أجل نيل الأمر المرغوب فيه، وهكذا الحال من السعادة في القول بالإفك، فقد هان عندهم كل أمر من أجل تحصيله؛ حتى دينهم الذي هو عصمة أمرهم زهدوا فيه في سبيل تحصل لذة عارضة متوهمة.

انظر إلى بلاغة الأداء القرآني في التعبير عن السرعة في إفشاء هذا الكلام وإذاعته دون وَعْي ودون تفكير، فمعلوم أن تلقِّي الأخبار يكون بالآذان لا بالألسنة، لكن من سرعة تناقل هذا الكلام فكأنهم يتلقونه بألسنتهم، كأن مرحلة السماع بالأذن قد ألغيت، فبمجرد أن سمعوا قالوا" [٣]

التعبير بـ (الألسنة) وسره البلاغي:

الأصل أن يتلقى الإنسان الكلام بأذنه ثم يستوعبه بعقله وقلبه، ثم يتكلم به بعد ذلك، أولا يتكلم، ولكن في هذه الحادثة كان التلقي باللسان بدل الأذن والقلب فهو إشارة إلى سرعة الأخذ وسرعة النطق دون

---

(١) – ينظر: مفاتيح الغيب جـ٢٣صـ ٣٤٢، البحر المحيط جـ٨صـ٢٢، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم جـ٦صـ١٦٢.

(٢) – تفسير سورة النور لمحمد بن محمد المختار الشنقيطي، جـ١٤صـ١٣.

(٣) – تفسير الشعراوي جـ١٦صـ١٠٢١٨.

التعقل والتدبر" (١)

ففي التعبير بالألسنة بيان لسرعة انتشار إفكهم، وشغفهم بسماعه، وشدة عداوتهم لنبيهم، فما أن سنحت لهم الفرصة، استبقوا للطعن في شرف أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والكلام مبني على الاستعارة المكنية حيث شبه الألسن في رواية الخبر بالأيدي في تناول الشيء، بجامع التلقي في كل، وحذف المشبه به، وأتى بشيء من لوازمه وهو التلقي على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية.

وَإِنَّمَا جعِلَتِ الْأَلْسن آلَةً لِلتَّلَقِّي مَعَ أَنَّ تَلَقِّيَ الْأَخْبَارِ بِالْأَسْمَاعِ لِأَنَّه لَمَّا كَانَ هَذَا التَّلَقِّي غَايَته التَّحَدّث بِالْخَبَرِ جعِلَتِ الْأَلْسن مَكَانَ الْأَسْمَاعِ مَجَازًا بِعَلَاقَةِ الْأَيْلولَةِ. وَفِيهِ تَعْرِيض بِحِرْصِهِمْ عَلَى تَلَقِّي هَذَا الْخَبَرِ فَهِمْ حِينَ يَتَلَقَّوْنَه يبَادِرونَ بِالْإِخْبَارِ بِهِ بِلَا تَروٍّ وَلَا تَرَيّثٍ. وَهَذَا تَعْرِيض بِالتَّوْبِيخِ أَيْضًا" (٢) فيه مزيد من الإنكار والردع.

وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجلَ كَانَ يَلْقَى الرَّجلَ فَيَقول لَه مَا وَرَاءَكَ؟ فَيحَدِّثه بِحَدِيثِ الْإِفْكِ حَتَّى شَاعَ وَاشْتَهَرَ فَلَمْ يَبْقَ بَيْت وَلَا نَادٍ إِلَّا طَارَ فِيهِ، فَكَأَنَّهمْ سَعَوْا فِي إِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ وَذَلِكَ مِنَ الْعَظَائِمِ" (٣)

وإنه لإعجاز من القرآن الكريم هذا التصوير المعجز لشائعات السوء، حين تجد من الناس آذانا مصغية إليها، ونفوسا مستجيبة لها.. إنها حينئذ تنطلق في سعار وجنون، بحيث لا تدع للناس فسحة من الوقت يتلقونها بآذانهم، ثم يديرونها في عقولهم ومشاعرهم، ليكون لهم خيار في قبولها أو ردها، بل إنه يلقى بها على ألسنتهم خلقا مصنوعا، مجهزا للتعامل به على صورته تلك.. إنها كلمات مردّ الحكم فيها إلى الألسنة.

فلتذقها الألسنة إذن، ولتحكم عليها بما تذوق منها.. وإن كثيرا من الناس، ليقفون بالكلام على حدود

---

(١) – الأساس في التفسير جـ٧صـ٣٧٢٦.

(٢) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٧٨.

(٣) – مفاتيح الغيب جـ٢٣صـ ٣٤٢.

ألسنتهم، ويفوّضون لها الأمر فيما تقبل منه أو ترفض.. وإن لكلمات السوء لحلاوة على ألسنة أهل السوء والفساد، يترشفونها كما يترشفون الماء البارد على ظمأ، في يوم قائظ!. " [١]

التعبير (بِأَلْسِنَتِكُمْ) الخطاب للجميع مع أنه لم يردد هذا إلا عدد قد أقيم عليهم حد القذف، وحدوا، ولكن خوطب الجميع للإشارة إلى أن واجب الفضلاء إذا سمعوا لغو القول الجارح أن يوقفوا قائليه ويمنعوهم، فإذا سمعوا ولم يتكلموا ولم يشاركوا فكأنهم جميعا تكلموا" [٢]

ولأن المقام اقتضى زيادة الإنكار والمبالغة في الردع والزجر.

التركيب الثاني: {وَتَقولونَ بِأَفْوَاهِكمْ مَّا لَّيْسَ لَكمْ بِهِ عِلْم}

التعبير بـ (الأفواه) وسره البلاغي:

عبر بالأفواه مع أنه من المعلوم أن القول لا يكون إلا بها؛ وذلك لأن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب، وله مصداق ومنشأ فيه، ثم يترجم عنه اللسان، وهذا الإفك ليس إلاّ قولًا يدور في أفواههم من غير ترجمة عن علم به في القلب [٣].

فهو تمهيد لقوله: {مَا لَيْسَ لَكمْ بِهِ عِلْم} أَيْ هوَ قَوْل غَيْر موَافِقٍ لِمَا فِي الْعِلْمِ وَلَكِنَّه عَنْ مجَرَّدِ تَصَوّرٍ لِأَنَّ أَدِلَّةَ الْعِلْمِ قَائِمَة بِنَقِيضِ مَدْلولِ هَذَا الْقَوْلِ فَصَارَ الْكَلَام مجَرَّدَ أَلْفَاظٍ تَجْرِي عَلَى الْأَفْوَاهِ" [٤]

(١) – التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب جـ٩صـ ١٢٤٤.

(٢) – زهرة التفاسير، جـ١٠صـ ٥١٦١.

(٣) – ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ٣صـ٢١٩، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم جـ٤صـ ١٠٠، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسـفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسـف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، جـ٣صـ٢٢١، نشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، وإعراب القرآن وبيانه جـ٦صـ٥٧٧، نشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) (دار ابن كثير – دمشق – بيروت)، الطبعة: الرابعة١٤١٥هـ.

(٤) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٧٨.

فالإفك "لم يكن إلا بضاعة رخيصة من لغو الكلام، الذي تتحرك به الألسنة وحدها، دون أن يكون له دافع من عقل أو رأى.. إنه حركة آلية، لا يشترك فيها من كيان الإنسان إلّا اللسان.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «وَتَقولونَ بِأَفْواهِكمْ ما لَيْسَ لَكمْ بِهِ عِلْم» - أي أن هذا الحديث المدار بينكم في هذا الأمر، هو حديث ألسنة، لا تنطق عن علم، ولا تأخذ عن عقل، أو منطق.. إنه حديث لسان يأخذ عن لسان، حتى دون أن يمر على الأذن. [١] وكأن الكلمة كلمة عظيمة وخطيرة وشنيعة تملأ الفم، فتكلموا بأفواههم.

وفي ذلك مبالغة وإلزام وتأكيد على طريق التتميم، ويصح أن يحمل على المجاز المرسل علاقته الكلية أو الآلية، أو المحلية؛ حيث أطلق الكل الأفواه وأريد الجزء اللسان الذي هو أداة الكلام.

وفيه إشارة إلى أنهم كانوا يقولون ذلك بملء أفواههم دون تحرج من التحدث بمثل هذا الخبر.) [٢]

"ففي هذا القيد إشعار بتعظيم الأمر المقول، وأنه مقول بالأفواه من غير أن يتصل بالقلوب التي تعلم كذبه واختلاقه، ونلحظ أن مثل هذا الأسلوب يأتي في القرآن الكريم في مواقف التشديد، والإنكار لتربية المعاني وتقريرها في النفوس" [٣]

وفي ذلك تصوير لمزيد قبحه وإشارة إلى أنه قول لا حقيقة له؛ فلا يمكن ارتسامه في القلب بنوع دليل، وأكد هذا المعنى بقوله: {ما ليس لكم به علم} وتنكيره للتحقير.

وبين الألسنة والأفواه مراعاة نظير أدت إلى تلاحم أجزاء الكلام، وحبك بنائه.

التركيب الثالث: {وَتَحْسَبونَه هَيِّنًا}

أَيْ تَحْسَبونَ الْحَدِيثَ بِالْقَذْفِ أَمْرًا هَيِّنًا؛ بدليل سكوتكم عن إنكاره.

وفي هذا التركيب "تنبيه على جرم آخر وهو استهانتهم بما وقعوا فيه، فالمؤاخذة فيه في ثلاثة مواضع:

---

(١) - التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب جـ٩صـ ١٢٤٤.

(٢) - حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، جـ١٣صـ ٢٩٠.

(٣) - خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني صـ٣١٨، نشر: مكتبة وهبة الطبعة: السابعة.

تلقي ذلك بالسؤال عنه، وأنهم يقفون ما ليس لهم به علم، ويملؤن به أفواههم، واستهانتهم بما صدر منهم؛ فلا ينعطفون إلى الاستغفار والإقلاع مع عظمه عند الله.

"وسبيل المؤمن ألا يستصغر في الوفاق طاعة، ولا يستصغر في الخلاف زلّة؛ فإنّ تعظيم الأمر تعظيم للآمر، وأهل التحقيق لا ينظرون ما ذلك الفعل ولكن ينظرون من الآمر به. " (١)

وَإِنَّمَا حَسِبوه هَيِّنًا لِأَنَّهم اسْتَخَفّوا الْغِيبَةَ وَالطَّعْنَ فِي النَّاسِ اسْتِصْحَابًا لِمَا كَانوا عَلَيْهِ فِي مدَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ إِذْ لَمْ يَكنْ لَهمْ وَازِع من الدِّين يرعهم فَلِذَلِكَ همْ يَحْذَرونَ النَّاسَ فَلَا يَعْتَدونَ عَلَيْهِمْ بِالْيَدِ وَبِالسَّبِّ خَشْيَةً مِنْهمْ فَإِذَا خَلَوْا أَمِنوا مِنْ ذَلِكَ.

فَهَذَا سَبَب حسْبَانِهِم الْحَدِيثَ فِي الْإِفْكِ شَيْئًا هَيِّنًا وَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَام بِإِزَالَةِ مَسَاوِي الْجَاهِلِيَّةِ وَإِتْمَامِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ" (٢)

التركيب الرابع: {وَهوَ عِندَ الله عَظِيم}

تحذير لهؤلاء الذين يستخفّون بالكلمة، وينفقون من رصيد ألسنتهم بغير حساب.. ظانين أن ذلك لا يضيرهم في شيء أبدًا، ما دام الذي ينفقون لا يكلّفهم جهدًا أو مالًا..

وهذا ظن خاطئ.. فالكلمة ليست مجرد صوت ينطلق من فم، وإنما هي- في حقيقتها- رسالة من الرسالات إلى عقول الناس، قد تكون طيبة، فتحمل إليهم الخير والهدى، وقد تكون خبيثة، فتسوق إليهم البلاء والهلاك.. (٣)

الفصل بالظرف (عند الله) وسره البلاغي:

فصل بين ركني الجملة بالظرف (عند الله) توهينًا لزعمهم، وبيان عظم الإثم، وفيه توبيخ شديد لهم،

---

(١) – لطائف الإشارات للقشيري، جـ٢ صـ٥٩٨.

(٢) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٧٨.

(٣) – التفسير القرآني للقرآن جـ٩صـ ١٢٤٥.

فليس ما ارتكبوه هنة صغيرة بل هو جريمة كبيرة" (١)

وفي هذه الآية الكريمة "وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها، أحدها: تلقى الإفك بألسنتهم، وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل فيقول له: ما وراءك؟ فيحدثه بحديث الإفك حتى شاع وانتشر فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه. والثاني: التكلم مما لا علم لهم به. والثالث: استصغارهم لذلك و «وعظيمة من العظائم. " (٢)

ومن جمال الآية الطباق بين الهين والعظيم الذي زاد معنى التركيب بيانًا وإيضاحًا، وتركيزًا وإيجازًا. وحث على التأني والتأمل عند نقل الأخبار ويعلم المسلم عدم التهاون في أي حديث ينقله فلا يكون مصدرًا لنقل الإشاعات بين المسلمين وسببًا في زعزعة ثقتهم وضعفهم.

وعبر بكلمة الجلالة لبعث المهابة في نفوسهم.

الآية السادسة:

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾

ثم يوجههم- سبحانه- مرة أخرى إلى ما كان يجب عليهم أن يفعلوه في مثل هذه الأحوال فيقول:

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾

كان عليكم أن تقولوا حين سمعتموه: إن هذا كذِب واختلاق كبير، وأن تنصحوا بعدمِ الخوض فيه.... لأنه غير لائق بكم، وأن تقولوا متعجِّبين من هول هذه الفِرية: سبحانك يا ربّ، نحن ننزهك، إن هذا كذب عظيم.

والآية امتداد للتوبيخ للذين خاضوا في هذا الإثم فهي "عَطْف عَلَى جمْلَةِ: {لَوْلا إِذْ سَمِعْتموه ظَنَّ الْمؤمنونَ} [النّور: ١٢] إِلَخْ. وَأعِيدَتْ (لَوْلَا) وَشَرْطهَا وَجَوَابهَا لِزِيَادَةِ الِاهْتِمَامِ بِالْجمْلَةِ؛ فَلِذَلِكَ لَمْ يَعْطِفْ {قلْتمْ} الَّذِي فِي هَذِهِ الْجمْلَةِ عَلَى {قلْتمْ} الَّذِي فِي الْجمْلَةِ قَبْلَهَا لِقَصْدِ أَنْ يَكونَ صَرِيحًا فِي عَطْفِ

(١) – زهرة التفاسير جـ١٠ صـ ٥١٦٠.

(٢) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ٣ صـ٢٢٠.

الْجمَلِ" [١]

وقد نظمت الآية الكريمة في تركيبين اثنين:

التركيب الأول: {ولولا إِذْ سَمِعْتموه قلْتمْ مَّا يَكون لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بهذا}

ولولا ـ هنا ـ للحث المصحوب باللوم؛ إذ كان حقهم أن يتفطنوا له من أنفسهم؛ فإن دلائله واضحة؛ فيقولون لهم زجرًا وموعظة ما ينبغي لنا وما يليق بنا الكلام، بهذا الإفك المبين؛ لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح.

تقديم الظرف -إِذْ سَمِعْتموه- على عامله والفصل به بين (لولا وقلتم) وسره البلاغي:

قدم الظرف {إِذْ سَمِعْتموه} على عامله ووقع فاصلًا بين (لولا وقلتم) لِلِاهْتِمَامِ بِمَدْلولِ ذَلِكَ الظَّرْفِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهمْ كَانَ مِنْ وَاجِبِهِمْ أَنْ يَطْرقَ ظَنّ الْخَيْرِ قلوبَهمْ بِمجَرَّدِ سَمَاعِ الْخبر، وأن يتفادوا أوّل ما سمعوا بالإفك عن التكلم به، وَأَن يتبرؤا مِنَ الْخَوْضِ فِيهِ بِفَوْرِ سَمَاعِهِ، فلما كان ذكر الوقت أهمّ وجب التقديم. [٢] وذلك لوجوب المبادرة على المحضض عليه.

ولأن في تقديم الظرف على عامله توبيخًا على التواني في الرد، يعني: كان الواجب عليكم عند سماعكم بالإفك ثم حينئذٍ أن لا تتوقفوا عن ظن الخير، وعن تكذيب الرامين، والقول بأن هذا إفك مبين، فلم توانيتم فيه؟ " [٣]

وفي قوله تعالى: «إِذْ سَمِعْتموه» – إشارة إلى أن الأمر لم يكن إلا حديثًا يدار على الألسنة، ويلقى به على الأسماع، وأنه لم يكن عن رؤية ومشاهدة.. " [٤]

---

(١) – التحرير والتنوير ١٨/ ١٧٩.

(٢) – ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ٣صـ٢٢٠، والتحرير والتنوير جـ١٨صـ١٧٤.

(٣) – فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: د. جميل بني عطا، المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، جـ١١صـ٣٧، نشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى ١٤٣٤ هـ ٢٠١٣م.

(٤) – التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب جـ٩صـ١٢٤٦.

نفي الكينونة وسره البلاغي:

جاء النفي في التركيب الكريم مسلطًا على الكينونة فقال تعالى: {مَا يَكون لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا} دونَ أَنْ يَقولَ: لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا، لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذَا وَكَيْنونَةَ الْخَوْضِ فِيهِ حَقِيق بِالِانْتِفَاءِ. وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَكَ: مَا يَكون لِي أَنْ أَفْعَلَ، أَشَدّ فِي نَفْيِ الْفِعْلِ عَنْكَ مِنْ قَوْلِكَ: لَيْسَ لِي أَنْ أَفْعَلَ. وَمِنْه قَوْله تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ عِيسَى ـ عليه السلام ـ قالَ سبْحانَكَ مَا يَكون لِي أَنْ أَقولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ [الْمَائِدَة: ١١٦].

وَهَذَا مَسوق لِلتَّوْبِيخِ عَلَى تَنَاقلِهِم الْخَبَرَ الْكَاذِبَ وَكَانَ الشَّأْن أَنْ يَقولَ الْقَائِل فِي نَفْسِهِ: مَا يَكون لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا، وَيَقول ذَلِكَ لِمَنْ يجَالِسه وَيَسْمَعه مِنْه. فَهَذَا زِيَادَة عَلَى التَّوْبِيخِ عَلَى السّكوتِ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقالوا هَذَا إِفْك مبِين [النّور: ١٢] (١)

فنفي الآية للكينونة (مَّا يَكون) أبلغ نفي لمثل هذا القول، وأبلغ من النفي المؤكد، وأنه غير سائغ في ذاته لأمرين:

أولهما: تقديس الله تعالى، لتأكيد النفي عن زوج نبيه، ومن لها مكان الاختصاص بمحبة فوق محبة غيرها من أزواجه، وهذا في معنى التعجب من أن يكون مثل هذا الفعل وهذا القول مرددا بين المؤمنين، ولم يوقفوه حتى تفاقم الأمر، وآذى النبي، إذ وصل إلى سمعه الكريم.

والآخر: أن التنزيه لله سبحانه في هذا المقام إشعار بأنه وحده المنزه، ويقال ذلك في كل موضع يتفاقم فيه الإثم" (٢)

وما يكون بمعنى ما ينبغي وما يصح يقول الزمخشري: "فإن قلت: فما معنى يكون، والكلام بدونه متلئب "مستتب" لو قيل ما لنا أن نتكلم بهذا؟ قلت: معناه معنى: ينبغي، ويصح أي: ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا. وما يصح لنا. ونحوه: {مَا يَكون لِي أَنْ أَقولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}(سورة المائدة: ١١٦) (٣)

---

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨٠.

(٢) – زهرة التفاسير جـ ١٠صـ ٥١٦١.

(٣) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ٣صـ٢٢٠.

وَمَعْنَى قلْتمْ مَا يكون لَنا أَنْ يَقولوا لِلَّذِينِ أَخْبَروهمْ بِهَذَا الْخَبَرِ الْآفِكِ. أَيْ قلْتمْ لَهمْ زَجْرًا وَمَوْعِظَةً. وَضَمِير لَنا مرَاد بِهِ الْقَائِلونَ وَالْمخَاطَبونَ. فَأَمَّا الْمخَاطَبونَ فَلِأَنَّهمْ تكَلَّموا بِهِ حِينَ حَدَّثوهمْ بِخَبَرِ الْإِفْكِ. وَالْمَعْنَى: مَا يَكون لَكمْ أَنْ تَتَكَلَّموا بِهَذَا، وَأَمَّا المتكلمون فلتنزههم من أَنْ يَجْرِيَ ذَلِكَ الْبهْتَان عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ" [(١)]

التعبير بـ (اسم الإشارة) وسره البلاغي:

عبر باسم الإشارة في قوله تعالى: {مَا يَكون لَنا أَنْ نَتكَلَّمَ بِهذا} لأنه "لا يغني غناءه أن يقال: ما يكون لنا أن نتكلم به؛ لأن في الإشارة معنى أنه لا ينبغي لنا أن نتكلم به، وإن أذاعه المرجفون، وأصبح حديثا ظاهرًا معلنًا؛ لأن قوة إشاعته لا تغير أنه باطل بيِّن" [(٢)] فضلًا عما وراء التعبير باسم الإشارة من تحقير وإهانة.

وَاسْم الْإِشَارَةِ عَائِد إِلَى الْإِفْكِ بِمَا يَشْتَمِل عَلَيْهِ مِنَ الِاخْتِلَاقِ الَّذِي يَتَحَدَّث بِهِ الْمنَافِقونَ وَالضّعَفَاء، فَالْإِشَارَة إِلَى مَا هوَ حَاضِر فِي كلِّ مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ سَمَاعِ الْإِفْكِ" [(٣)]

التركيب الآخر: {سبْحَانَكَ هذا بهْتَان عَظِيم}

دلالة (سبحانك) البلاغية:

سبحانك جملة معترضة بَيْنَ قوله تعالى: {مَا يَكون لَنا أَنْ نَتكَلَّمَ بِهذا} وقوله تعالى: {هَذَا بهْتان عَظِيم} تقريراً لما قبلها وتمهيدًا لما بعدها، لإفادة التعجب، وإن قلت "كَيْفَ يَلِيق سبْحَانَكَ بِهَذَا الْمَوْضِعِ؟ فالْجَوَاب: مِنْ وجوهٍ: الْأَوَّل: الْمرَاد مِنْه التَّعَجّب مِنْ عِظَمِ الْأَمْرِ، وَإِنَّمَا اسْتعْمِلَ فِي مَعْنَى التَّعَجّبِ لِأَنَّه يسَبَّح الله عِنْدَ رؤْيَةِ الْعَجِيبِ مِنْ صَانِعِهِ ثمَّ كَثرَ حَتَّى اسْتعْمِلَ فِي كلِّ متَعَجَّبٍ مِنْه الثَّانِي: الْمرَاد تَنْزِيه الله تَعَالَى عَنْ أَنْ تَكونَ زَوْجَة نَبِيِّهِ فَاجِرَةً؛ لأن فجورها ينفر عنه، ويخل بمقصود الزواج، بخلاف كفرها. الثَّالِث: أَنَّه منَزَّه عن أن يرضى الرَّابِع: أَنَّه منَزَّه عَنْ أَنْ لا يعَاقِبَ هَؤلَاءِ الْقَذَفَةَ الظَّلَمَةَ. " [(٤)]

---

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨٠.

(٢) – خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني للدكتور/ محمد محمد أبو موسى، صـ٢٠١.

(٣) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨٠.

(٤) – مفاتيح الغيب جـ٢٣صـ٣٤٤. بتصرف يسير.

وفيه تهييج وتقريع وتذكير بما يوجب ترك العود، وهو الإيمان الصادّ عن كل قبيح" (١)

وفيه "بيان فضل عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حيث نزهها باللفظ الذي نزه به نفسه، وهو لفظ سبحان الله، ويقال: سبحان الله أن تكون امرأة النبي ﷺ زانية، ما كانت امرأة نبي زانية قط" (٢)

وفي ذلك "سر عجيب وهو أن الأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل عند كل متعجب منه" (٣)

ووجه الخطاب فيه إلى الله تعالى للإشعار بِأَنَّ اللهَ غَاضِب عَلَى مَنْ يَخوض فِي ذَلِكَ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَوَجَّهوا لِلَّهِ بِالتَّوْبَةِ مِنْه لِمَنْ خَاضوا فِيهِ وَبِالِاحْتِرَازِ مِنَ الْمشَارَكَةِ فِيهِ لِمَنْ لَمْ يَخوضوا فِيهِ" (٤)

والتعجب تعظيم أمر في قلوب السامعين، ولا يكون إلا في شيء خارج عن نظرائه وأشكاله" (٥)

وفي التركيب إيجاز بالحذف؛ حيث حذف عامل المفعول المطلق {سبحانك}؛ لأنه لغير توكيد (٦)، ويقدر من الفعل، والتقدير أسبح سبحانك.

تعريف المسند إليه بـ (اسم الإشارة) وسره البلاغي:

عرف المسند إليه ب (اسم الإشارة) لإبرازه وتحديده فيقع الحكم عليه بأنه بهتان عظيم بعد هذا التمييز والتجسيد، وفي ذلك قدر كبير من قوة الحكم، وصدق اليقين من أنه بهتان عظيم.

---

(١) – البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، جـ٤ صـ٢٠، نشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: ١٤١٩هـ.

(٢) – بحر العلوم للسمرقندي جـ٢صـ٥٠٣.

(٣) – إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش جـ٦ صـ٥٨٣.

(٤) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨١.

(٥) – البحر المحيط في التفسير لأبي حيان جـ١٠صـ١٦٤.

(٦) – ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك جـ٢صـ ١٧٥.

وصف البهتان بالعظمة وسره البلاغي:

الْبهْتَان مَصْدَر مِثْل الْكفْرَانِ وَالْغفْرَانِ. وَالْبهْتَان: الْخَبَر الْكَذِب الَّذِي يَبْهَت السَّامِعَ لِأَنَّه لَا شبْهَةَ فِيهِ" [١]

وَوَصْف الْبهْتَانِ بِأَنَّه عَظِيم مَعْنَاه أَنَّه عَظِيم فِي وقوعِهِ، أَيْ بَالِغ فِي كنْهِ الْبهْتَانِ مَبْلَغًا قَوِيًّا.

وَإِنَّمَا كَانَ عَظِيمًا لِأَنَّه مشْتَمِل عَلَى منْكَرَاتٍ كَثِيرَةٍ وَهِيَ: الْكَذِب، وَكَون الْكَذِب يطعن فِي سَلَامَةِ الْعَرْضِ، وَكَوْنه يسَبِّب إِحَنًا عَظِيمَةً بَيْنَ الْمفْتَرِينَ والمفترى عَلَيْهِم بِدونِ عذر، وَكَون المفترى عَلَيْهِمْ مِنْ خِيرَةِ النَّاسِ وَانْتِمَائِهِمْ إِلَى أَخْيَرِ النَّاسِ مِنْ أَزْوَاجٍ وَآبَاءٍ وَقرَابَاتٍ، وَأَعْظَم مِنْ ذَلِكَ أَنَّه اجْتِرَاء عَلَى مقَام النبيء ﷺ ومقام أمِّ الْمؤْمِنِينَ رضي الله عنها. " [٢]

و"أوجِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقولوا هَذَا بهْتَان عَظِيم مَعَ أَنَّهمْ مَا كَانوا عَالِمِينَ بِكَوْنِهِ كَذِبًا قَطْعًا؟ لوَجْهَيْنِ: الْأَوَّل: أَنَّهمْ كَانوا متَمَكِّنِينَ مِنَ الْعِلْمِ بِكَوْنِهِ بهْتَانًا، لِأَنَّ زَوْجَةَ الرَّسولِ لَا يَجوز أَنْ تكونَ فَاجِرَةً الثَّانِي: أَنَّهم لَمَّا جَزَموا أَنَّهمْ مَا كَانوا ظَانِّينَ لَه بِالْقَلْبِ كَانَ إِخْبَارهمْ عَنْ ذَلِكَ الْجَزْمِ كَذِبًا" [٣]

هذا ويعد هذا التركيب {هَذَا بهْتان عَظِيم} تعليلًا لِجمْلَةِ: {مَا يَكون لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سبحانك} فهي داخلة في توبيخ المقول لهم.

فلما كان تنزيه الله تعالى في مثل ذلك وإن كان للتعجب إشارة إلى تنزيه المقام الذي وقع فيه التعجب تنزيهًا عظيمًا حسن أن يوصل بذلك قوله {هذا بهتان} تعليلًا للتعجب والنفي.

هذا وقد اتفقت الآية الكريمة مع سابقتيها في الفاصلة {عظيم}؛ لتأكيد عظمة تلك الحادثة، فلم يكن يصح أبدا أن يعتدى على بيت رسول الله ﷺ وقد اتحدت الآيات في الغرض.

"تأمل كيف كان فتح باب الأذن، والسماع في هذا الشأن مغويًا وقائدًا إلى الغفلة عما يجب أن يقال عند سماعه، وهو ما أدبنا به ربنا {مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ} أرأيت كيف يرتفع

---

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨ص١٨١.

(٢) – المصدر السابق الصفحة نفسها.

(٣) – مفاتيح الغيب جـ٢٣ص٣٤٤.

القرآن بطبائع النفس حتى يكون شأنها أنها لا تتكلم بهذا، ولا بما هو من طبقته؛ لأنه بهتان، وقد رفعها أدب القرآن عن هذا الحضيض " (١)

الآية السابعة:

﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

ثم حذّر الله - سبحانه- المؤمنين من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم فقال: ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

يعِظكم الله بهذه المواعظ وينهاكم أن تعودوا لمثل هذه المعصية أبدًا، إن كنتم مؤمنين حقًّا؛ لأن هذه الأعمال تتنافى مع الإيمان الصادق.

والآية كالنتيجة للآيات السابقات، وإفادة أن ليس الغرض منها مجرد التقريع والتوبيخ، وإنما يقصد منها العظة والتعليم حتى لا تقعوا في مثل ما وقعتم فيه بلا تبصر.

وفصلت الآية الكريمة عن سابقتها مع وجود الجامع المرجح للعطف، لوجود المانع، وهو أنه لم يقصد تشريك جملة ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ كي لا يفهم أن الجملة الثانية من قولهم، فترك العطف للتوسط بين الكمالين.

وجاءت الآية الكريمة في تركيبين اثنين:

التركيب الأول: {يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا}

التعبير بالفعل المضارع -يعظكم- وسره البلاغي:

الوَعْظ: الْكَلَام الَّذِي يطْلَب بِهِ تَجَنّب الْمخَاطَبِ بِهِ أَمْرًا قَبِيحًا" (٢)

وعبر بالفعل المضارع {يعظكم} "لبيان أن ما مضى من قول فيه عظة، والله سبحانه وتعالى مستمر ومجدد لهم العظة آنًا بعد آنٍ، فهو سبحانه وتعالى مديم تجديد الإرشاد والتنبيه إلى ما فيه طهارة

---

(١) - أمثال سورة النور للدكتور محمد محمد أبوموسى صـ١٤، مقال منشور بمجلة الوعي الإسلامي، العدد: ٣٠٥، نشر: وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية ١٩٨٩م.

(٢) - التحرير والتنوير ١٨/ ١٨٢.

جماعتكم، والبعد عن ذمها" (١)

ولما فيه من "تأليف للنفس لتقبل على ما أمرت به إقبال حب واقتناع" (٢)؛ فالوعظ تذكير فيما يرق له القلب" (٣)

وهو "أسلوب التربية المؤثر في أنسب الظروف للسمع والطاعة والاعتبار، مع تضمين اللفظ معنى التحذير من العودة إلى مثل ما كان فالله تعالى يعظهم بهذه المواعظ التي فيها صلاح دينهم ودنياهم، وتهذيب نفوسهم وإصلاح مجتمعهم، ووقايتهم من الأمراض الاجتماعية والعقد النفسية" (٤)

ويجمع هذا الفعل بين حرفين أحدهما مفخم وهو الظاء، والآخر مرقق وهو العين و"كأنما يوحي بالجمع بين اللين والشدة، في هذه العظة التي يقدمها الله ﷻ في الآية؛ فأتى المعنى من باب التحذير، ووجوب التزام ما وعظ المؤمنون به من العودة إلى قذف المؤمنات" (٥)

التعبير بـ-مثله- وسره البلاغي:

والتعبير عن الحالة التي كانوا عليها من الخوض في حديث الإفك ب (لِمِثْلِهِ)، "مبالغة لأن لَا يقعوا فيها، كما تقول لكريم: مثلك لا يبخل: أي أنت لَا تبخل؛ لأن فيه سجايا لَا تسمح له أن يبخل كما لَا تسمح لمثله" (٦)

والأبد: عبارة عن مدّة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان، وذلك أنه يقال: زمان كذا، ولا يقال: أبد كذا.

---

(١) - زهرة التفاسير جـ١٠ صـ٥١٦٣.

(٢) - صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، للدكتور/ محمود توفيق محمد سعد، صـ٨١، نشر: مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

(٣) - المفردات في غريب القرآن صـ٨٧٦.

(٤) - منهج سورة النور في إصلاح النفس والمجتمع للدكتور/ كامل سلامة الدقس، صـ١٨٠ الطبعة الثانية.

(٥) - النظم القرآني في سورة النور، لعائشة إبراهيم حسن الملاح صـ٢٠، نشر الجامعة الأردنية ٢٠٠٤م.

(٦) - زهرة التفاسير جـ١٠ صـ٥١٦٣.

وكان حقه ألا يثَنى ولا يجمع؛ إذ لا يتصور حصول أبدٍ آخر يضم إليه فيثنّى به" (١)

التركيب الآخر: {إِنْ كنْتمْ مؤْمِنِينَ}

وقعت التركيب الشرطي مفصولًا عما مضى؛ لأنه شرط وقع قيدًا للتركيب الماضي، "وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه ما قبله" (٢)

التعبير بالشرط {إِنْ كنْتمْ مؤْمِنِينَ} وسره البلاغي:

وجيء بالشرط المتعلق بالمستقبل، مع أنه لا شك فيه، لقصد إثارة همتهم الدينية فيبرهنوا على أنهم مؤمنون حقًا فلا يعودوا لمثله.

يقول ابن عاشور: {إِنْ كنْتمْ مؤْمِنِينَ} تَهْيِيج وَإِلْهَاب لَهمْ يَبْعَث حِرْصَهمْ عَلَى أَنْ لَا يَعودوا لِمِثْلِهِ لِأَنَّهمْ حَرِيصونَ عَلَى إِثْبَاتِ إِيمَانِهِمْ، فَالشَّرْط فِي مِثْلِ هَذَا لَا يقْصد بِالتَّعْلِيقِ، إِذْ لَيْسَ الْمَعْنَى: إِنْ لَمْ تَكونوا مؤْمِنِينَ فَعودوا لِمِثْلِهِ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ احْتِمَال حصولِ مَفْهومِ الشَّرْطِ مجْتَنَبًا كَانَ فِي ذِكْرِ الشَّرْطِ بَعْث عَلَى الِامْتِثَالِ" (٣)

وفيه تعريض بأن الإيمان كان خير رادع وزاجر لهم للبعد عن الحديث في بيت رسول الله، فلو كانوا مؤمنين حقًا لابتعدوا عن الخوض في مثل هذا الحديث، وهذا التعريض مليء باللوم والتأنيب.

"ومثل هذا الشرط – على ما قال الطيبي–إنما يجاء به في آخر الكلام للتأكيد" (٤) أي لتأكيد ما وعظهم به.

---

(١) – المفردات في غريب القرآن صـ٥٩.

(٢) – المجتبى من مشكل إعراب القرآن د/ أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال، جـ٢صـ٧٩١، نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة: ١٤٢٦هـ.

(٣) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨٣.

(٤) – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، جـ٤صـ١٤.

الآية الثامنة:

﴿وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

ويفصّل الله لكم في كتابه الآيات الدالة على الأحكام ومحاسن الفضائل والآداب، والله واسع العلم لا يغيب عنه شيء من أعمالكم، وهو الحكيم في كل ما يشرع ويخلق.

والآية إبراز لما تفضل به- سبحانه- عليهم من تعليم وتوجيه وحسن تربية" (١) وهي تذييل لتأكيد مضمون ما قبلها.

وجاءت الآية الكريمة في تركيبين اثنين:

التركيب الأول: {وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ}

وصل التركيب بسابقه لما بينهما من اتحاد في الخبرية.

وَيبَيِّن الله لَكم الْآياتِ أَيْ يَجْعَلهَا لَكمْ وَاضِحَةَ الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصودِ؛ "لتتَّعِظوا وتتأدَّبوا بها أي ينزلها كذلكَ أي مبينة ظاهرةَ الدِّلالةِ على معانيها لا أنَّه يبينها بعد أن لم تكن كذلك" (٢)

و "الْمرَاد مِنَ الْآيَاتِ مَا بِهِ يَعْرِف الْمَرْء مَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَمَسَّكَ بِهِ، ثمَّ بَيَّنَ أَنَّه لِكَوْنِهِ عَلِيمًا حَكِيمًا يؤَثِّر بِمَا يَجِب أَنْ يبَيِّنَه وَيَجِب أَنْ يطَاعَ لِأَجْلِ ذَلِكَ، لِأَنَّ مَنْ لَا يَكون عَالِمًا لَا يَجِب قَبول تَكْلِيفِهِ، لِأَنَّه قَدْ يَأْمر بِمَا لَا يَنْبَغِي، وَلِأَنَّ الْمكَلَّفَ إِذَا أَطَاعَه فَقَدْ لَا يَعْلَم أَنَّه أَطَاعَه، وَحِينَئِذٍ لَا يَبْقَى لِلطَّاعَةِ فَائِدَة، وَأَمَّا مَنْ كَانَ عَالِمًا لَكِنَّه لَا يَكون حَكِيمًا فَقَدْ يَأْمره بِمَا لَا يَنْبَغِي فَإِذَا أَطَاعَه الْمكَلَّف فَقَدْ يعَذِّب الْمطِيعَ وَقَدْ يثِيب الْعَاصِيَ، وَحِينَئِذٍ لَا يَبْقَى لِلطَّاعَةِ فَائِدَة، وَأَمَّا إِذَا كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا فَإِنَّه لَا يَأْمر إِلَّا بِمَا يَنْبَغِي وَلَا يهْمِل جَزَاءَ الْمسْتَحِقِّينَ، فَلِهَذَا ذَكَرَ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ وَخَصَّهمَا بِالذِّكْر" (٣)

---

(١) – التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور/ محمد سيد طنطاوي، جـ١٠ صـ٩٨.

(٢) – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، جـ٦ صـ١٦٣.

(٣) – مفاتيح الغيب جـ٢٣ صـ٣٤٤.

التركيب الآخر: {وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}

وصل التركيب بسابقه لما بينهما من اتحاد في الخبرية.

التعبير بالمظهر في مقام المضمر وسره البلاغي:

وإظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي، والإشعارِ بعلَّةِ الألوهيَّةِ للعلم والحكمةِ" (١) ولأنه من شأن البيان المذكور في بداية التركيب.

تكرار اسم الجلالة وسره البلاغي:

كرر اسم الجلالة في الآية الكريمة لتمكين ذلك في النفس فضل تمكن، وتأكيد لاستقلال الاعتراض التذييلي.

والعليم: المحيط بكل شيء، وما يترتب عليه.

والحكيم: الذي يضع الأمور في نصابها، وتستتبع أفعاله الفائدة والثمرات المقصودة منها.

(١) – إرشاد العقل السليم ٦/ ١٦٣.

المبحث الثاني

بلاغة النظم القرآني في آيات عقوبة إشاعة الفاحشة

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢٢)

الآية الأولى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى ما على أهل الإفك، وما على من سمع منهم، وما ينبغي أن يتمسك به المؤمنون من آداب، أتبعه بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يحِبّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَة فِي الَّذِينَ آمَنوا}.. ليعلم أن من أحب ذلك فقد شارك في هذا الذم، كما شارك فيه من فعله ومن لم ينكره، وليعلم أهل الإفك كما أن عليهم العقوبة فيما أظهروه، فكذلك يستحقون العقوبة بما أسروه، من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين" [١]

إن الذين يحبّون أن يفشوا القبائح ويتهموا بها المؤمنات لهم عذاب مؤلم في الدنيا بالعقوبة المقررة، وفي الآخرة بالنار، والله عليم بجميع أحوالكم وأنتم لا تعلمون ما يعلمه.

وفصلت الآية الكريمة عن سابقتها لكمال الانقطاع؛ إذ لا مناسبة بينهما. يقول ابن عاشور: " لَمَّا حَذَّرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْعَوْدِ إِلَى مِثْلِ مَا خَاضوا بِهِ مِنَ الْإِفْكِ عَلَى جَمِيعِ أَزْمِنَةِ الْمسْتَقْبَلِ أَعْقَبَ تَحْذِيرَهمْ

(١) – مفاتيح الغيب جـ٢٣صـ٣٤٥.

بِالْوَعِيدِ عَلَى مَا عَسَى أَنْ يَصْدرَ مِنْهمْ فِي الْمسْتَقْبَلِ بِالْوَعِيدِ عَلَى مَحَبَّةِ شيوعِ الْفَاحِشَةِ فِي الْمؤْمِنِينَ فَالْجمْلَة اسْتِئْنَاف ابْتِدَائِيّ" (١)

وجاءت الآية الكريمة في تركيبين اثنين:

التركيب الأول: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}

تعريف المسند إليه بالموصولية وسره البلاغي:

عرف المسند إليه {الذين} بالموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر؛ فإن محبة شيوع الفاحشة في الذين آمنوا، الذي دلت عليه الصلة {ئۆ ئۈ ئې ئې ئى ئى ئى} قد أومأ إلى وجه بناء الخبر، وأنه من جنس العذاب والنكال.

"وَاسْم الْمَوْصولِ يَعمّ كلَّ مَنْ يَتَّصِف بِمَضْمونِ تلك الصِّلَةِ فَيَعمّ الْمؤْمِنِينَ وَالْمنَافِقِينَ وَالْمشْرِكِينَ، فَهوَ تَحْذِير لِلْمؤْمِنِينَ وَإِخْبَار عَنِ الْمنَافِقِينَ وَالْمشْرِكِينَ" (٢)

التعبير بالفعل المضارع {يحبون} وسره البلاغي:

عبر بالفعل المضارع {يحبون} لإفادة التجديد والاستمرار، وأن إشاعة الفاحشة هي عادتهم وديدنهم، وأنه لا يرتكب هذا مع شناعته إلا محب له، ولا يحبه إلا بعيد عن الاستقامة.

والمقصود بمحبة شيوعها: محبة شيوع خبرها بين عامة الناس "عن قصد إلى الإشاعة، وإرادة ومحبة لها" (٣)

والمحبَّة هنا كناية عن التَّهَيّؤ لنشر الحديث بالفاحشة بين أوساط المسلمين.

وَتِلْكَ الْمَحَبَّة شَيْء غَيْر الْهَمِّ بِالسَّيِّئَةِ وَغَيْر حَدِيثِ النَّفْسِ لِأَنَّهمَا خَاطِرَانِ يمْكِن أَنْ يَنْكفَ عَنْهمَا

---

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨٤.

(٢) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨٤.

(٣) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ٣صـ٢٢١.

صَاحِبِهِمَا، وَأَمَّا الْمَحَبَّة الْمسْتَمِرَّة فَهِيَ رَغْبَة فِي حصولِ الْمَحْبوبِ" (١)

التعبير بالفاحشة وسره البلاغي:

عبر عن الزنا بكلمة أشد وقعًا على السمع وهي الفاحشة زيادة في الاشمئزاز والتقزز من ذكر اسمها بالاسم الحقيقي. كما جعل انتشارها بين المؤمنين قبيح مذموم" (٢) وتحاميًا عن ذكره في هذا الموطن ولو بطريق النفي مبالغة في تطهير من جاءت هذه الآيات لتطهيرها، ثم ليعم جميع أنواع الفحش.

و (أل) في الفاحشة للجنس وهي من ألفاظ العموم؛ فتحمل كل ما تحمله كلمة الفاحشة من معنى، كالزنا واللواط والفحش من القول، والتهمة الجائرة، والتعميم هنا أبلغ في الزجر من التخصيص وإن كان المراد هنا الزنا.

ففي قوله تشيع الفاحشة إيجاز بالحذف؛ إذ المعنى يشيع خبرها بين عامة الناس؛ "لِأَنَّ الشّيوعَ مِنْ صِفَاتِ الْأَخْبَارِ وَالْأَحَادِيثِ كَالْفشوِّ وَهوَ: اشْتِهَار التَّحَدّثِ بِهَا. فَتَعَيَّنَ تَقْدِير مضَافٍ، أَيْ أَنْ يَشِيعَ خَبَرهَا إِذِ الْفَاحِشَة هِيَ الْفَعْلَة الْبَالِغَة حَدًّا عَظِيمًا فِي الشَّنَاعَةِ" (٣)

وفيه دلالة على تفظيع نشر أخبار الفاحشة بوصفها هي الفاحشة نفسها.

و"إذا تأملت في تعليق الشيوع بالفاحشة نفسها مع أن المراد شيوع خبرها والحديث فيها، وجدت بابًا آخر من الإرشاد، ذلك أن الأسماع التي لم يطرقها حديث الفحشاء تجد أصحابها في أكمل نفرة من خطراتها على نفوسهم، فإذا ما طرق سمع أحدهم حديث فحش مرة اشمأزت نفسه وأكبرت الأمر، وملكه من الهلع والذعر الشيء الكبير، فإذا ما تكرر على سمعه مرة أخرى كان اشمئزازه ونفرته أقل، فلا يزال يتكرر حديث الفحش حتى يصبح أمرًا مألوفًا لا يستنكره ولا ينفر منه، وقد يزيد حتى يستمرئ الحديث ويصغى إليه، وهنا تتفتح أمامه هوة التدهور، فيتردى فيه وقد مات حارسه وهو عاطفة الاستنكار

---

(١) - التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨٤.

(٢) - حاشية القونوي على تفسير البيضاوي لعصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي، تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، جـ١٣صـ ٢٩١، نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٣) - التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨٤.

والنفرة، فترى بذلك أن حب شيوع الحديث كحب شيوع الفاحشة نفسها، فلا جرم عبر به عنه.

ومما يزيدك استبصارًا في هذا ما ترى من تحرج الآباء عن ذكر مثل هذه الأخبار أمام أبنائهم الأحداث، فما ذاك إلا لما وقر في النفوس من أن ذكر الفحش يلفت النفوس إليه فتردى فيه، وهل يشك أحد في أن من أساليب الترغيب في الشيء، خيرًا كان أو شرًا، تكرار ذكر حوادثه وتفاصيل شؤونه؟ " (١)

وفي كلمتي {تشيع الفاحشة} اجتمعت ثلاثة أصوات مهموسة هي: الشين، والفاء، والحاء، أما العين فصوتها مجهور مرقق بين الرخاوة والشدة، وهذه الأصوات كأنما توحي بالانتشار والتوسع السريع، وهو ما تحمله {تشيع} من دلالة، يؤكد ذلك اقترانها بلفظ {الفاحشة} المكونة من حروف تتسم جميعًا بالهمس والرقة؛ فالفاحشة مبتدأها خفي غير معلوم، ومصدر هذه الفحشاء هو الشيطان، كما أتى في سياق الآيات التاليات لها {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (النور: ٢١)، وقد أتى صوت الطاء في {الشيطان} ليحمِّل هذه الكلمة معنى الخفاء والخفة، اللذين يسلكهما الشيطان في غواية الناس" (٢)

التعبير بقوله تعالى: {في الذين آمنوا} وسره البلاغي:

أفاد التعبير بقوله جل شأنه: {في الذين آمنوا} إثبات ما هو كدليل البراءة للمرميين والتكذيب للأفاكين، وهو إيمان من وجه إليهم هذا الرمي الشنيع، وما كان المؤمن الصحيح الإيمان مظنة لهذه المنكرات؛ فحقهم أن يقيسوا إيمان من رموهم على إيمانهم.

تقديم المسند "لهم" وسره البلاغي:

قدم المسند {لهم} على المسند إليه {عذاب} لإفادة القصر قصر العذاب عليهم وكأنه حق من حقوقهم ملازم لهم لا يعدوهم ولا يخلصون منه.

---

(١) – منهج سورة النور في إصلاح النفس والمجتمع: ١٨٧، ١٨٨.

(٢) – النظم القرآني في سورة النور صـ٢٠.

تنكير العذاب ووصفه بالأليم وسره البلاغي:

وجاءت كلمة عذاب نكرة لإفادة العموم؛ فهي عامة في جنسها.

ووصف الله العذاب بأنه أليم زيادة في الجزاء الوفاق لمثل هذه الإشاعات الذميمة

ربط العذاب الأليم بمحبة الشيوع وسره البلاغي:

ربطت الآية الكريمة العذاب الأليم في الدنيا والآخرة بمحبة شيوع الفاحشة في المؤمنين "تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ مَحَبَّةَ ذَلِكَ تَسْتَحِقّ الْعقوبَةَ لِأَنَّ مَحَبَّةَ ذَلِكَ دَالَّة عَلَى خبْثِ النِّيَّةِ نَحْوَ الْمؤْمِنِينَ. وَمِنْ شَأْنِ تِلْكَ الطَّوِيَّةِ أَنْ لَا يَلْبَثَ صَاحِبهَا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَصْدرَ عَنْه مَا هوَ محب لَه أَوْ يسَرَّ بِصدورِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ" [1] وفيه مبالغة في الزجر والتهويل.

وبين (الدنيا) و (الآخرة) طباق، وضح المعنى وأكده، وأوحى بأن لا يظن من أقيم عليه حد القذف ولم يندم على ما بدر منه أنه نجا فهو إثم عظيم يستحق صاحبه أن يجمع له مع عقاب الدنيا عقاب الآخرة.

فقد صور هذا الطباق البديع ترقب من نجا من الحد في الدنيا لنوع العذاب الذي سيحل به في الآخرة.

التركيب الآخر: {والله يَعْلَم وَأَنْتمْ لاَ تَعْلَمونَ}

ووصل هذا التركيب بسابقه لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى.

يعد هذا التركيب تتميمًا لهذه الإشارات منزلًا منها منزلة قوله فيما سبق {وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم} كأنه يدفع بها خاطر من يظن أن مجرد الكلام كثير عليه أن يستتبع كل هذا الوعيد، فما خرج عن أنه كلام؛ والكلام فيه الصادق وفيه الكاذب؛ فجاءت هذه الجملة الجميلة لتبين لهم أن الله عليم بالأعمال وآثارها، وما يترتب عليها في نفس من وجهت إليه، وفي نفس من وجهت منه، وفي نفس السامعين، من مضار كثيرة" [2]

---

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨ صـ١٨٤.

(٢) – منهج سورة النور في إصلاح النفس والمجتمع صـ١٨٩.

وهو "تقرير لثبوت العذابِ الأليمِ لهم وتعليل له" [١] وفي ذلك شفاء لصدور المؤمنين، وإذهاب لغيظ قلوبهم.

وهوَ حَسَن الْمَوْقِعِ بِهَذَا الْمَوْضِعِ؛ لِأَنَّ مَحَبَّةَ الْقَلْبِ كَامِنَة وَنَحْن لا نَعْلَمهَا إِلَّا بِالْأَمَارَاتِ، أَمَّا الله سبْحَانَه فَهوَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء، فَصَارَ هَذَا الذِّكْر نِهَايَةً فِي الزَّجْرِ لِأَنَّ مَنْ أَحَبَّ إِشَاعَةَ الْفَاحِشَةِ وَإِنْ بَالَغَ فِي إِخْفَاءِ تِلْكَ الْمَحَبَّةِ فَهوَ يَعْلَم أَنَّ الله تَعَالَى يَعْلَم ذَلِكَ مِنْه وَأَنَّ عِلْمَه سبْحَانَه بِذَلِكَ الَّذِي أَخْفَاه كَعِلْمِهِ بِالَّذِي أَظْهَرَه وَيَعْلَم قَدْرَ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ. " [٢]

وقد أفاد تقديم المسند إليه على خبره الفعلي اختصاص الله تعالى بالعلم ونفيه عنهم.

وحذف مفعول {يعلم} لإثبات المعنى في نفسه على الإطلاق من غير اعتبار تعلقه بمن وقع عليه.

وبين {والله يَعْلَم} و {وَأَنْتمْ لاَ تَعْلَمونَ} طباق سلب صور جهل الخلق المطلق أمام علم الله عَزَّوَجَلَّ.

وأفاد التعريض بمن اعتقد أن أمر محبته لشيوع الفاحشة أمر قلبي لا يعرفه أحد وأن بإمكانه إخفاءه بأن ذلك لن يخفى على الله.

الآية الثانية:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

ثم ذكَّر – سبحانه – المؤمنين بفضله عليهم مرة أخرى، لكي يزدادوا اعتبارًا واتعاظًا فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم، لَما بيَّن لكم الأحكامَ ولعَجَّلَ عقوبتكم في الدنيا وكنتم من الهالكين.

ونظمت الآية الكريمة في تركيبين اثنين:

---

(١) – إرشاد العقل السليم جـ٦ صـ١٦٤.

(٢) – مفاتيح الغيب، جـ٢٣ صـ٣٤٦.

التركيب الأول: {وَلَوْلاَ فَضْل الله عَلَيْكمْ وَرَحْمَته}

كرر قوله تعالى: {وَلَوْلاَ فَضْل الله عَلَيْكمْ وَرَحْمَته} أربع مرات في النظم القرآني في سورة النور.

وفي ذلك "تعظيم المِنَّةِ بترك المعاجلة للتنبيه على كَمَالِ عِظَمِ الجريمة. (١)

حذف جواب لولا وسره البلاغي:

حذف في الآية الكريمة جواب لولا للتعظيم والتفخيم؛ لتذهب النفس كل مذهب ممكن في تقديره بحسب المقام، والذي "سَوَّغَ الْحَذْفَ طول الْكَلَامِ بِالْمَعْطوفِ وَالطّول دَاعٍ لِلْحَذْفِ" (٢) و"لمعرفة السامع بالمراد من الكلام بعده، وهو قوله: ﴿يَاأَيّهَا الَّذِينَ آمَنوا لا تَتَّبِعوا خطوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ الآية. " (٣)

واختلف العلماء في تقدير هذا الجواب، والأظهر: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لعاجلكم بالعقوبة وهلكتم. (٤)

وبعض أهل العلم يقول: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لشاعت الفاحشة وذاعت، ولكن الله جل وعلا برحمته بكم منع الفاحشة أن تشيع" (٥)

وفي هذا التكرير مع حذف الجواب تنبيه إلى قوة المبالغة وشدة التهويل.

وَقَدْ ذَكَرَ فِي الْمَرَّةِ الْأولَى وَصْفَ اللهِ بِأَنَّه تَوَّاب حَكِيم لِلْمنَاسَبَةِ الْمتَقَدِّمَةِ، وَذَكَرَ هنَا بِأَنَّه رؤوف رَحِيم، لِأَنَّ هَذَا التَّنْبِيهَ الَّذِي تَضَمَّنَه التَّذْيِيل فِيهِ انْتِشَال لِلْأمَّةِ مِنِ اضْطِرَابٍ عَظِيمٍ فِي أَخْلَاقِهَا وَآدَابِهَا وَانْفِصَامِ عرَى وَحْدَتِهَا فَأَنْقَذَهَا مِنْ ذَلِكَ رَأْفَةً وَرَحْمَةً لِآحَادِهَا وَجَمَاعَتِهَا وَحِفْظًا لِأَوَاصِرِهَا.

وَذَكَرَ وَصْفَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ هنَا لِأَنَّه قَدْ تَقَدَّمَه إِنْقَاذه إِيَّاهمْ مِنْ سوءِ مَحَبَّةِ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَة فِي الَّذِينَ

---

(١) – البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، جـ٤ صـ٢٢.

(٢) – البرهان للزركشي جـ٣صـ١٨٧.

(٣) – جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، جـ١٩ صـ١٣٤.

(٤) – ينظر: التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨٦.

(٥) – سلسلة محاسن التأويل لأبي هاشم صالح بن عوّاد بن صالح المغامسي، جــ٥٩صــ١٢، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

آمَنوا تِلْكَ الْمَحَبَّة الَّتِي انْطَوَتْ عَلَيْهَا ضَمَائِرِ الْمنافِقِينَ كَانَ إِنْقَاذ الْمؤْمِنِينَ مِنَ التَّخَلّقِ بِهَا رَأْفَةً بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَرَحْمَةً لَهمْ بِثَوَابِ الْمَتَابِ" (١)

وكما حذف جواب «لولا» حذف خبر المبتدأ، والتقدير: ولولا فضل الله عليكم، ورحمته بكم موجودان، لعاجلكم بالعقوبة.

فالقرآن الكريم قد يعمد "بعد حذف فضول الكلام وزوائده -إلى حذف شيء من أصوله وأركانه التي لا يتم الكلام في العادة بدونها، ولا يستقيم المعنى إلا بها، ولقد يتناول بهذا الحذف كلماتٍ وجملًا كثيرة متلاحقة ومتفرقة في القطعة الواحدة، ثم تراه في الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ في تأدية المعنى كله بجلاء ووضوح، وفي طلاوة وعذوبة، حتى يخيل إليك من سهولة مسلك المعنى في لفظه أن لفظه أوسع منه قليلًا.

فإذا ما طلبتَ سر ذلك رأيته قد أودع معنى الكلمات أو الجمل المطوية في كلمة هنا وحرف هناك، ثم أدار الأسلوب إدارة عجيبة وأمر عليها جَنْدَرة البيان بيد صَنَاع، فأحكم بها خلقه وسواه. ثم نفخ فيه من روحه، فإذا هو مصقول أملس، وإذا هو نير مشرق، لا تشعر النفس بما كان فيه من حذف وطي، ولا بما صار إليه من استغناء واكتفاء، إلا بعد تأمل وفحص دقيق" (٢)

التركيب الآخر: {وَأَنَّ الله رَءوف رَّحِيم}

إنَّ الله رؤف بالتَّبْرِئَة رحيم بقبول توبة من تاب ممن قذف.

وهذا التركيب معطوف على {فضل الله} أي: لولا فضله ورأفته لعاَجلكم بالعقوبة.

" وَقَدْ ذَكَرَ فِي الْمَرَّةِ الأولَى وَصْفَ اللهِ بِأَنَّه تَوَّاب حَكِيم لِلْمنَاسَبَةِ الْمتَقَدِّمَةِ، وَذَكَرَ هنَا بِأَنَّه رؤوف رَحِيم، لِأَنَّ هَذَا التَّنْبِيهَ الَّذِي تَضَمَّنَه التَّذْيِيل فِيهِ انْتِشَال لِلْأمَّةِ مِنِ اضْطِرَابٍ عَظِيمٍ فِي أَخْلَاقِهَا وَآدَابِهَا وَانْفِصَامِ

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨٦.

(٢) – النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم للدكتور/ محمد بن عبد الله دراز، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، صـ١٧٠، نشر: دار القلم للنشر والتوزيع ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

عرَى وَحْدَتِهَا فَأَنْقَذَهَا مِنْ ذَلِكَ رَأْفَةً وَرَحْمَةً لِآحَادِهَا وَجَمَاعَتِهَا وَحِفْظًا لِأَوَاصِرِهَا.

وَذَكَرَ وَصْفَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ هنَا لِأَنَّه قَدْ تَقَدَّمَه إِنْقَاذه إِيَّاهمْ مِنْ سوءِ مَحَبَّةِ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَة فِي الَّذِينَ آمَنوا تِلْكَ الْمَحَبَّة الَّتِي انْطَوَتْ عَلَيْهَا ضَمَائِر الْمنَافِقِينَ كَانَ إِنْقَاذ الْمؤْمِنِينَ مِنَ التَّخَلّقِ بِهَا رَأْفَةً بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَرَحْمَةً لَهمْ بِثَوَابِ الْمَتَابِ" [١]

التعبير بالمظهر في مقام المضمر وسره البلاغي:

عبر بالمظهر {الله} في مقام المضمر لتربية المهابة، والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة، وتغيير سبكِه وتصديره بحرف التأكيد لأن المراد بيان اتصافه تعالى في ذاته بالرأفة، التي هي كمال الرحمة، وبالرحيمية التي هي المبالغة فيها على الدوام والاستمرار، لا بيان حدوثِ تعلّق رأفتِه ورحمتِه بهم [٢]

وغايرت هذه الفاصلة فاصلة آية اللعان {وَلَوْلَا فَضْل اللهِ عَلَيْكمْ وَرَحْمَته وَأَنَّ اللهَ تَوَّاب حَكِيم} (النور: ١٠) لأن الآية الأولى "لما اتبنت على آية التلاعن، وفيها من الستر على المسلمين ممن امتحن بتلك البلية، ومن إخفاء الحكمة في حكم التلاعن وشرعيته على ما استقر (عليه) أمره، مما يعجز عن فهمه كل معتبر، أعقبت بالصفتين المناسبتين لما ذكرنا مما هو غير خاف فقيل: (وَأَنَّ اللهَ تَوَّاب حَكِيم) (النور: ١٠)، ولما تقدم قبل الآية الثانية قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يحِبّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَة فِي الَّذِينَ آمَنوا لَهمْ عَذَاب أَلِيم فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ) (النور: ١٩)، وجرى بظاهر هذه الآية من الوعيد ما يشتد خوف كل مؤمن منه، أعقب ذلك بصفتين مبقيتين رجاء المؤمنين، ومشعرتين بأن هذا العذاب إن نفذ الوعيد به ليس الخلود في النار، وما لم يكن من فاعل ذلك كفر باعتقاد حلية تلك المعصية أو التكذيب بالعويد أو التلبس بما هو كفر، وأنه إذا لم يكن شيء من هذا فلا قاطع عن التوبة، فقال: (وَأَنَّ اللهَ رَءوف رَحِيم) (النور: ٢٠)، فقد وضح أن ورود كل من هذه الصفات المعطوفة على ما يجب ويناسب، وأن العكس لا

---

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨٦.

(٢) – ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم جـ٦صـ١٦٤، والبحر المديدجـ٤صـ٢٢.

يناسب" (١)

وهذا التغاير "يؤذن بأن الذنب في هذا أعظم وكأنه لا يرتفع إلا بمحض رأفته تعالى، وهو أعظم من أن يرتفع بالتوبة... والغرض التغليظ" (٢)

الآية الثالثة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

ثم وجه- سبحانه- نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن اتباع خطوات الشيطان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

يا أيها الذين آمنوا، لا تسلكوا سبلَ الشيطان، بل احذَروا وساوسه التي تجرّكم إلى إشاعة الفاحشة والمعاصي بينكم. ومن يتبع الشيطان فقد عصى.... لأنه يأمر بكبائر الذنوب. ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم ببيان الأحكام – ما طَهرَ أحد منكم من ذنوبه أبدًا، ولكن الله يطهِر مَن يشاء من خلقه بقبول توبته، والله سميع لما تقولون، عليم بما في قلوبكم.

و"هَذِهِ الْآيَة نَزَلَتْ بَعْدَ الْعَشْرِ الْآيَاتِ الْمتَقَدِّمَةِ، فَالْجمْلَة اسْتِئْنَاف ابْتِدَائِيّ، وَوقوعه عَقِبَ الْآيَاتِ الْعَشْرِ الَّتِي فِي قَضِيَّةِ الْإِفْكِ مشِير إِلَى أَنَّ مَا تَضَمَّنَتْه تِلْكَ الْآيَات مِنَ الْمَنَاهِي وَظنونِ السّوءِ وَمَحَبَّةِ شيوعِ الْفَاحِشَةِ كلّه مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَان" (٣)

وقد نظمت الآية الكريمة في خمسة تراكيب:

(١) – ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل للغرناطي، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي؛ جـ٢صـ٣٧٢، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(٢) – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، جـ٩صـ٣١٩. باختصار.

(٣) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨٦.

التركيب الأول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}

التركيب استئناف ابتدائي وهو العبرة والنتيجة، والدرس المستفاد من قصة الإفك، وهو أن كل ذلك كان نتيجة اتباع الشيطان وتهاويل الشيطان، ولذلك أمر الله المؤمنين جميعًا ألا يتبعوه.

النداء ودلالته البلاغية:

في هذا النداء مدح للمؤمنين بندائهم بهذا الوصف وصف الإيمان؛ وذلك لتحريك قوة الإيمان في قلوبهم، ولتهييجهم على الاستجابة لما أرشدهم إليه- سبحانه-.

وقد جاء بحرف النداء المقتضي للبعد ثابتًا غير محذوف؛ ليشعر العبد ببعد المنزلة بين الله والعباد، وللدلالة على أن المنادى فيه شيء من البعد بالمعصية والذنوب عن المنادِي سبحانه وتعالى؛ فعليه أن يصغي لما ينادى عليه به؛ ليزداد بهذه الطاعة قربًا.

ومع طول هذا الموضوع الذي احتوى ستًا وعشرين آية، إلا أن آياته كانت مترابطة، ومتناسبة مع بعضها.

يقول سعيد حوى في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} جاء هذا النداء بعد مجموعتين سابقتين عليه، عرض فيهما نماذج على خطوات الشيطان، وعلى ما يأمر به من فحشاء كالزنا، وعلى ما يأمر به من منكر كالقذف، وإذن فالصلة واضحة بين هذا النداء وبين ما قبله" [١]

التعبير بـ (خطوات الشيطان) وسره البلاغية:

الخطْوة، بِالضَّمِّ: مَا بَيْنَ الْقَدَمَيْنِ فِي المشي، وَالْجَمْع خطىً وخطْوات وخطوات [٢]

والمقصود: طرقه ومسالكه ووساوسه، التي منها الإصغاء إلى حديث الإفك، والخوض فيه. وما يشبه ذلك من الأقوال الباطلة، والأفعال القبيحة.

شبه سلوك طريق الشيطان والسير في ركابه بمن يتتبع خطوات غيره خطوة خطوة؛ لتناسبهما في أن كلا منهما يوصل إلى المعاصي، على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية.

---

(١) – الأساس في التفسير جـ٧صـ٣٧١٨.

(٢) – لسان العرب مادة: (خ ـ ط ـ ا) جـ١٣صـ٢٣١.

وقد صورت هذه الاستعارة العاصي بمن يقتفي أثر الشيطان ليسير على خطاه.

وإذا تخيل المؤمن ذلك المنظر استقبح تلك الصورة وأنف بنفسه أن تكون مع العصاة؛ فكان هذا التصوير خير ناه له عن العصيان.

وأفادت إضافة الخطوات إلى الشيطان تحقير شأن المضاف إليه.

"ويلحظ هنا الدقة في لفظ {تتبعوا} وفي الجمع {خطوات} فالتتبع هنا المتابعة بحرص وعناية وقصد، والجمع يدل على تلون الشيطان فيما يدعو إليه، وفي التدرج بمتبعيه" [1] وكأن في استعمال صيغة الافتعال إشارة إلى العفو عن الهفوات.

التركيب الثاني: ثم ذكر سبب وعلة النهى فقال: {وَمَنْ يَتَّبِعْ خطواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّه يَأْمر بِالْفَحْشاءِ وَالْمنْكَرِ}

أي ومن اتبع خطوات الشيطان بعزم ثابت من غير أن يكون مخطئًا أو ناسيًا، ارتكب الفحشاء والمنكر، فإنه لا يأمر إلا بهما، ومن هذا شأنه لا ينبغي اتباعه ولا طاعته.

والتركيب مبني على التمثيل حيث فشبه حال من يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا في كونه متَلَبِّسًا بوسوسة الشيطان بهيئة الشيطان يمشي والعامل بأمره يتبع خطى ذلك الشيطان.

فهي حركة خاصة للشيطان يخطو والناس وراءه يتبعون خطواته، وحين تجسم هذه الصورة هكذا تبدو عجيبة من الآدميين، وبينهم وبين الشيطان الذي يسيرون وراءه ما أخرج أباهم من الجنة.

وضع الظاهر موضع المضمر وسره البلاغي:

وضعَ الظَّاهرانِ {خطواتِ الشَّيْطانِ} موضعَ ضمير يهما؛ حيث لم يقلْ ومَن يتبعها، أو ومَن يتبع خطواتِه؛ لزيادة التقريرِ والمبالغةِ في التَّنفيرِ والتَّحذيرِ" [2]

ولأن خطوات الشيطان مما لا يظهر للعيان وإنما هو تعبير مشرق أريد به كيد الشيطان ومكره وخداعه،

---

(١) – من بلاغة القرآن في حادثة الإفك، للدكتور/ عبد الله بن أحمد محمد العمري، صـ ٢٠٧٠، نشر: ١٤٣٢هـ.

(٢) – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم جـ٦ صـ١٦٤.

فأعيد اللفظ نفسه ليكون أكثر رسوخًا في أداء المعنى، وأكثر إشراقًا ووضوحًا" (١)

وضع الضمير موضع الاسم الظاهر وسره البلاغي:

وضع الضمير في "فإنه" موضع الاسم الظاهر {الشَّيْطانِ} استبعادًا للشيطان، وإسناد الجملة إلى ضميره الدال على غيبته وجاء المسند جملة فعلية ((وإذا أريد الإخبار بالجملة، فإن أريد الحدوث أتي بالجملة الفعلية" (٢)

وجاء الفعل {يَأْمر} مضارعًا ليدل على التجدد والحدوث، وفي هذا إشعار بتجدد كيد الشيطان واستمراره وخداعه.

التعبير عن وسوسة الشيطان وإغوائه بالفعل {يأمر} وسره البلاغي:

عبر سبحانه عن وسوسة الشيطان وإغوائه بالأمر {يأمر}؛ لأن الشيطان يستولي على من اتبعه، وكأنه سلطان مسيطر يأمره وينهاه، ولا سلطان على نفس الضال غيره؛ لأنه رضي مسلك الشيطان طريقًا، وهو ينتهي لا محالة إلى الضلال الذي لا هداية معه قط. " (٣)

حذف مفعول {يأمر} وسره البلاغي:

حذف مفعول {يأمر} لقصد العموم في المفعول، والامتناع عن أن يقصره

المتلقي على ما يذكر معه دون غيره مع الاختصار؛ ليتوفر الغرض على إثبات وقوع الفعل من الفاعل.

والفَحْشاء القبيح مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَجَمْعهَا الفَواحِش. (٤)

والمنْكَر ضِدّ الْمَعْروفِ، وَالْجَمْع مَناكِير، وهو كلّ مَا قَبَّحَه الشَّرْع وحَرَّمَه وَكَرِهَه. (٥)

---

(١) – من بلاغة القرآن في حادثة الإفك صـ٢٠٦١.

(٢) – الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة لمحمد بن علي الجرجاني، تحقيق الدكتور/ عبد القادر حسين، صـــ ٧٥ نشر مكتبة الآداب ١٩٩٧م.

(٣) – زهرة التفاسير جـ١٠صـ ٥١٦٧.

(٤) – لسان العرب مادة: (ف ـ ح ـ ش) جـ٦صـ٣٢٥.

(٥) – لسان العرب مادة: (ن ـ ك ـ ر) جـ٥صـ٢٣٣.

التركيب الثالث وأسراره: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا}

أي لولا فضل الله عليكم– أيها المؤمنون– بأن هداكم إلى الخير ورحمته بكم بالمغفرة عند التوبة ما طهر أحد منكم من دنس الذنوب والمعاصي طول حياته؛ لأن فتنة الشيطان فتنة عظيمة لا يكاد يسلم منها الناس، ولكن الله– تعالى– بفضله ورحمته يطهر من يشاء تطهيره من الأرجاس والأنجاس. بأن يقبل توبته. ويغسل حوبته.

التركيب الرابع وأسراره: {وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ}

الزكاة تطلق بمعنى التنمية، وتطلق بمعنى الطهارة، وهنا بمعنى تزكية العقول في النفس، وامتلائها طهرًا، وعفافًا وإيمانًا، أي أنه لولا فضل الله تعالى بالموعظة والهداية وتربية النفوس بالتقوى ورحمته بهدايتكم وقبولكم للحق وتجنبكم مخاوف الشيطان ما طهر منكم من أحد أبدًا، وقد أكد سبحانه جواب الشرط وعمومه أولا ب " مِنْ " الدالة على استغراق النفي للآحاد والجماعة، وأكد النفي أيضا بدخول (مِن) على (أحد)، كما أكده بذكر (أبدًا) " [1] إذ أفاد به عموم الزمان.

وخص الله تعالى بالتزكية وقصرت عليه بوساطة تقديم المسند إليه على خبره الفعلي.

وفي التركيب إيجاز بالحذف؛ حيث حذف مفعول {يشاء} لإرادة العموم والاختصار، "والامتناع عن أن يقصره السامع على ما يذكر معه دون غيره، مع الاختصار" [2]

التركيب الخامس وأسراره: {وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}

لأقوالكم وإن خفيت، ومن جملتها: الحلف على ترك فعل الخير، عليم بنياتكم وإخلاصكم " [3] فهو خبير بمن أهل للتزكية ومن ليس بأهل لها.

---

(١) – زهرة التفاسير، جـ١٠صـ٥١٦٧.

(٢) – بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، للشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، جــ١صــ٢٠٣، نشر: مكتبة الآداب الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ– ٢٠٠٥م.

(٣) – البحر المديد في تفسير القرآن المجيد جـ٤صـ٢٢.

وفى هذا حث لهم على الإخلاص في التوبة، والابتعاد جهد المستطاع عن المعصية، وارتكاب الأوزار والآثام" (١)

والتركيب "تَذْيِيل بَيْنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، أَيْ سَمِيع لِمَنْ يشِيع الْفَاحِشَةَ، عَلِيم بِمَا فِي نَفْسِهِ مِنْ مَحَبَّةِ إِشَاعَتِهَا، وَسَمِيع لِمَنْ ينْكِر عَلَى ذَلِكَ، عَلِيم لِمَا فِي نَفْسِهِ مِنْ كَرَاهَةِ ذَلِكَ فَيجَازِي كلًّا عَلَى عَمَلِهِ" (٢)

وضع الظاهر موضع المضمر وسره البلاغي:

وضع الظاهر موضع المضمر؛ للإيذانِ باستدعاءِ الألوهيَّةِ للسمعِ والعلمِ ليكون التذييل مستقلًا بنفسه؛ لأنه مما يجري مجرى المثل.

{والله سَمِيع} مبالغ في سمعِ الأقوالِ التي مِنْ جملتِها ما أظهروه من التَّوبةِ {عَلِيم} بجميعِ المعلوماتِ التي مِنْ جملتِها نيَّاتهم وفيه حثّ لهم على الإخلاص في التوبة " (٣)

الآية الرابعة:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

بعد أن ذكر الله حادثة الإفك، وبرأ عرض رسول الله وزوجه، نهى أبا بكر -رضي الله عنه- عن أن يمتنع من الإنفاق على مسطح الذي خاض في الإفك، وبين الله أن عدم الامتناع سبب للمغفرة والرحمة.

لا يحلف مبالغًا في يمينه أصحاب الفضل من الأغنياء منكم على الامتناع عن الإنفاق على أقاربهم من المساكين والمهاجرين ولو أساؤوا إليهم، بل عليهم أن يسامحوهم ويصفحوا عنهم، ألا تحبّون أن يستر الله عليكم ويغفر لكم ذنوبكم!! إن الله غفور لذنوب من أطاعه رحيم به.

والآية كناية عن الاقتداء بالشيطان مبالغة في اتباع طرائق تزيينه، وفي الكناية حث على حث للمؤمنين على الابتعاد عن طرائق الغواية والفتنة.

---

(١) تفسير المراغي جـ١٨ صـ٨٨.

(٢) – التحرير والتنوير جـ١٨ صـ١٨٨.

(٣) – إرشاد العقل السليم جـ٦ صـ١٦٥.

ونسقت الآية الكريمة في أربعة تراكيب:

التركيب الأول: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ}

عطف على جملة: {لَا تَتَّبِعوا خطواتِ الشَّيْطانِ} [النّور: ٢١] عطف خاصٍ على عام للاهتمام به؛ لِأَنَّه قَدْ يَخْفَى أَنَّه مِنْ خطوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ أَنْ يَأْتِيَ بِوَسْوَسَةٍ فِي صورَةِ خَوَاطِرِ الْخَيْرِ إِذَا عِلِمَ أَنَّ الْموَسْوَسَ إِلَيْهِ مِنَ الَّذِينَ يَتَوَخَّوْنَ الْبِرَّ وَالطَّاعَةَ، وَأَنَّه مِمَّنْ يَتَعَذَّر عَلَيْهِ تَرْوِيج وَسْوَسَتِهِ إِذَا كَانَتْ مَكْشوفَةً. " [١]

والآية تمثيل وحجة أي كما تحبون عفو الله لكم عن ذنوبكم فذلك أغفر لمن دونكم وينظر إلى هذا المعنى قول النبي ﷺ «مَنْ لاَ يَرْحَم لاَ يرْحَم» [٢] " [٣]

{وَلاَ يَأْتَلِ}: مضارِع ائْتَلَى افْتَعَلَ تَقول الْعَرَب: آلَى يؤْلِي إِيلاَءً: حَلَفَ، وتأَلَّى يَتأَلَّى تأَلِّيًا وأْتَلَى يَأْتَلِي ائْتِلاءً. وَالْائِتِلَاء افْتِعَال مِنَ الْأَلِيَّةِ وَهِيَ الْحَلِف [٤]

وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: {لِلَّذِينَ يؤْلونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبّص أَرْبَعَةِ أَشْهرٍ فَإِنْ فَاءوا فَإِنَّ اللهَ غَفور رَحِيم} [البقرة: ٢٢٦] أَيْ: يَحْلِفونَ.

وقول امرئ القيس:

وَيومًا عَلَى ظَهرِ الكَثيبِ تَعَذّرَتْ... عَلَيّ وآلَتْ حَلْفَةً لم تَحَلَّلِ [٥]

---

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨ صـ١٨٨.

(٢) – صحيح البخاري بَابُ "رَحْمَةِ الوَلَدِ وَتَقْبِيلِهِ وَمُعَانَقَتِهِ"، حديث رقم: (٥٩٩٧)، جـ٨صـ٧.

(٣) – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز جـ٤صـ١٧٣.

(٤) – لسان العرب، مادة: (أ-ل-ا) جـ١٤صـ٤٠.

(٥) – ديوان امرئ القيس، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، صـ٣٢، نشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الثانية ١٤٢٥هـ٢٠٠٤م.

أي: حَلَفَتْ حَلْفَةً.

ويرجح ذلك قراءة أبي جعفر «ولا يَتَأَلَّ» بِتَقْدِيم التَّاء وَفتح الْهمزَة بعْدهَا وبتشديد اللَّام مَفْتوحَة [١] وَأَكْثَر اسْتِعْمَالِ الْأَلِيَّةِ فِي الْحَلِفِ عَلَى امْتِنَاعٍ [٢]، "والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان" [٣]

ويجوزَ أَنْ يكونَ {وَلاَ يَأْتَلِ} مضارع أَلَوْت أي قَصَّرْت، [٤] يقال: أَلا يَأْلو أَلْواً وأُلوّاً وأُلِيّا وإِلِيّا وأَلَّى يؤَلِّي تَأْلِيَةً وأْتَلَى: قَصَّر وأَبطأَ. [٥]

والمعنى: لا يقصروا في أن يحسنوا إلى المستحقين للإحسان وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها. [٦]

ومنه قوله تعالى: {لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} (آل عمران: ١١٨) أي: لا يقْصِرون لكم في الفسادِ [٧]

وقول النبي ﷺ لفاطمة رضي الله عنها فِي حَدِيثِ زَوَاجِ سيدنا عَلِيٍّ كرم الله وجهه: «مَا يبْكِيكِ؟ فَمَا أَلَوْتكِ فِي

---

(١) – ينظر: الكنز في القراءات العشر لتاج الدين بن المبارك، تحقيق: د. خالد المشهداني، جـ٢صـ٥٧٨، نشر: مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، الطبعة: الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، وتحبير التيسير في القراءات العشر، لأبي الخير ابن الجزري، تحقيق: د. أحمد محمد مفلح القضاة، صـ ٤٨٠، نشر: دار الفرقان – الأردن / عمان، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٢) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨٩.

(٣) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري، جـ٣صـ٢٢٢.

(٤) – ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جـ٣صـ٢٢٢، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، جـ٤صـ١٧٣، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى١٤٢٢هـ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، جـ٤صـ١٠٢، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي، جـ٤صـ١٠٢، التحرير والتنوير، جـ١٨صـ١٨٩.

(٥) – لسان العرب، مادة (أ ـ ل ـ ا) جـ١٤صـ٣٩.

(٦) – ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جـ٣صـ٢٢٢.

(٧) – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم جـ٢صـ٧٦.

نَفْسِي وَقَدْ أَصَبْت لَكِ خَيْرَ أَهْلِي وَايْم الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ زَوَّجْتكِ سَعِيدًا فِي الدّنْيَا وَإِنَّه فِي الْآخِرَةِ لِمَنَ الصَّالِحِينَ» (١) أي: ما قَصَّرْت في أمرك وأمري حيث اخترت لك عليًا زوجًا.

وقول امرئ القيس:

وما المَرْء ما دامَتْ حشَاشَة نَفْسِهِ... بِمدْرِكِ أَطرافِ الخطوبِ ولا آلِ (٢)

وفيه النهي عن الحلف ألا يفعل خيراً وأن من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فيستحب له الحنث وفيه الأمر بالعفو والصفح.) (٣)

التعبير بـ (أولو الفضل والسعة) وسره البلاغي:

الْفَضْل: أَصْله الزِّيَادَة فَهوَ ضِدّ النَّقْصِ، وَشَاعَ إِطْلَاقه عَلَى الزِّيَادَةِ فِي الْخَيْرِ وَالْكَمَالِ الدِّينِيِّ وَهوَ الْمرَاد هنَا. وَيطْلَق عَلَى زِيَادَةِ الْمَالِ فَوْقَ حَاجَةِ صَاحِبِهِ وَلَيْسَ مرَادًا هنَا؛ لِأَنَّ عَطْفَ وَالسَّعَةِ عَلَيْهِ يبْعِد ذَلِكَ. وَالسَّعَة: الْغِنَى. (٤)

والسر في التعبير بالجمع عن المفرد هو قصد الإبهام في مقام العتاب "ووصفه بالفضل يؤكد ذلك؛ لأن من كان في مثل فضله لا يصح أن يدفعه الغضب إلى حرمان المسيء من فضله" (٥)

وفي التعبير بـ (السعة) معنى عظيم؛ فما قال: والنعيم، أو: الترف، أو: الثراء والغنى، وكلها مفردات قد

---

(١) – المعجم الكبير للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، باب: ذكر تزويج فاطمة ، حديث رقم: (١٠٢٢) جـ٢٢صـ٤١٠، نشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

(٢) – ديوانه صـ١٤٠.

(٣) – الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي، تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب، صـ ١٩٠، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

(٤) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٨٩. "بتصرف يسير"

(٥)– الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن للدكتور/ محمد الأمين الخضري صـ١٢١، ١٢٢، نشر: مطبعة الحسين، الطبعة الأولى: ١٩٩٣م.

تؤدي المعنى نفسه، ولكن قال: (السعة) وكأنه يشير إلى أن يوسع على نفسه ويوسع على غيره" [١]

والْأَلِفَ وَاللَّامَ فِي الْفَضْلِ وَالسَّعَةِ يفِيدَانِ الْعمومَ و"يَدلَّانِ عَلَى أَنَّ كلَّ الْفَضْلِ وَكلَّ السَّعَةِ لِأَبِي بَكْرٍ كَمَا يقَال فلَان هوَ الْعَالَم يَعْنِي قَدْ بَلَغَ فِي الْفَضْلِ إِلَى أَنْ صَارَ كَأَنَّه كلّ الْعَالَمِ وَمَا عداه كالعدم" [٢]

الإيجاز بالحذف في التركيب وسره البلاغي:

حذف من التركيب الكريم المفعول الثاني ل {ﭻ}؛ وذلك لظهوره، وحذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من أن وصلتهما {ﭻ ﭼ}

وهذا الحذف مطرد، وكذلك حذفت {لا} النافية قبل المضارع {ﭼ}؛ لدلالة المعنى؛ إذ السياق والسباق واللحاق موضح للمراد.

والتقدير: لا يحلفوا على أن لا يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، النفقة التي تعودوا أن يقدموها لهم.

وعبر بالإيتاء {يؤتوا}؛ دون الإعطاء (يعطوا)؛ لأن الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأن الإعطاء له فعل مطاوع، تقول: أعطاني فَعَطَوت، ولا يقال في الإيتاء أتاني فأتيت، وإنما يقال: آتاني فأخذت، والفعل الذي له فعل مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له؛ لأنك تقول: قطعته فانقطع؛ فيدل على أن فعل الفاعل كان موقوفًا على قبولٍ في المحل، ولولاه ما ثبت المفعول" [٣]

الالتفات وسره البلاغي:

وَقَرَأَ أَبو حَيْوَةَ وَابْن قطَيْبٍ وَأَبو الْبَرَهْسَمِ قوله تعالى: {أَنْ يؤْتوا} بالتاء [٤] على الالتفات من الغيبة إلى

---

(١) – سلسلة محاسن التأويل لصالح المغامسي، جـ٩٥صـ١٩.

(٢) – مفاتيح الغيب جـ٢٣صـ٣٥٠، ٣٥١.

(٣) – من أسرار التعبير في القرآن صفاء الكلمة للدكتور عبد الفتاح لاشين، صـ٧٠، ٧١، نشر: دار المريخ بالرياض، ١٩٨٣م.

(٤) – ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ٣صـ٢٢٢، والبحر المحيط في التفسير جـ٨صـ٢٥، وفتح القدير للشوكاني، جـ٤صـ٢٠، الموسوعة القرآنية لإبراهيم بن إسماعيل الأبياري، جـ٦صـ٧٤، نشر: مؤسسة سجل العرب، الطبعة: ١٤٠٥ هـ، وفتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي جـ١١صـ٤٥.

الخطاب؛ لإلهاب وتهييج المخاطبين لقبول العفو والصفح

وهو التفات موافق لقوله: {أَلَا تحِبّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكمْ}.

فمن جمال الأسلوب في الآية الكريمة أن أتى الأمر والنهي في صدرها بطريق الغيبة معلقًا بالصفات التي من حقها أن تدعو إلى امتثال الأمر واتباع الإرشاد: من كونهم أولي فضل وسعة، وكون من طلب منهم العطف عليهم أولي قربى ومسكنة وهجرة.

ثم لما جيء إلى باب الترغيب والتشويق واجتناء الثمار، عدل إلى الخطاب تقريبًا لمنزلتهم، وليوليهم عظيم الشرف بالزلفى، فقال تعالى: {ألا تحبون أن يغفر الله لكم}.

ذكر الصفات بطريق العطف وسره البلاغي:

ذكرت هذه الصفات المقتضية للإحسان {أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ} بطريق العطف لتكثيرها، وتعظيم لأمرها، وإشارة إلى أن صفة منها كافية في الإحسان، فكيف إذا اجتمعت؟

وهذه الصفات مؤذنة بأن الموصوفين بها ممن زكى الله، وتعدادها بجعلها علة للعفو دليل على أن الزاكي من غير المعصومين قد يزل؛ فتدركه الزكاة بالتوبة فيرجع كما كان.

هذا وقد تكون هذه الصفات لموصوف واحد؛ لأن سبب نزولها مسطح رضي الله عنه فيكون العطف لإفادة التمكن في كل وصف منها، وللتنبيه على أن "كلاًّ منها علة مستقلة لاستحقاق الإيتاء تنزيلًا لتغاير الصفات منزلة تغاير الموصوفات، والجمع أبلغ في إثبات استحقاق الإيتاء لهذه الصفات؛ لأنّ من اتصف بواحدة منها إذا استحقه فمن جمعها بالطريق الأولى." [١]

وَالْأَوْصَاف فِي قَوْلِهِ: {أولِي الْقرْبى وَالْمَساكِينَ وَالْمهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ} مقْتَضِيَة الْموَاسَاةَ بِانْفِرَادِهَا، فَالْحَلِف عَلَى تَرْكِ موَاسَاةِ وَاحِدٍ مِنْهمْ سَدّ لِبَابٍ عَظِيمٍ مِنَ الْمَعْروفِ وَنَاهِيكَ بِمَنْ جَمَعَ الْأَوْصَافَ كلَّهَا مِثْل مِسْطَحٍ الَّذِي نَزَلَتِ الْآيَة بِسَبَبِهِ" [٢]

---

(١) – ينظر: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيْضَاوي للخفاجي، جـ٦ صـ٣٦٦.

(٢) – التحرير والتنوير جـ١٨ صـ١٨٩.

وعبر بالجمع {أُولِي الْقُرْبَى} ليشمل القرابة البعيدة؛ حيث كان من عوتب فيه أبو بكر رضي الله عنه من ذوي أرحامه لا من عصبته... فكان التعبير بالجمعين {أولوا الفضل} {أُولِي الْقُرْبَى} متناغمين في الدلالة على سعة فضل الصديق وكرمه وشموله هذا الفضل للأباعد من الأقارب" [(١)]

التركيب الثاني:

ولما كان النهي عن الحلف عن إتيان أولي القربى غير صريح في العفو، وكان التقدير: فليؤتوهم، عطف عليه مصرحًا بالمقصود قوله:

{وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا}

والعَفْوِ: هوَ التَّجاوز عَنِ الذَّنْبِ وتَرْك العِقابِ عَلَيْهِ، وأَصله المَحْو والطَّمْس، يقَال: عَفَا يَعْفو عَفْواً، فَهوَ عافٍ وعَفوّ، وكلّ مَنِ اسْتحقَّ عقوبةً فَتَرَكْتَها فَقَدْ عَفَوْتَ عَنْه. مأْخوذ مِنْ قَوْلِهِمْ عفَت الرياح الآثارَ إِذا دَرَسَتْها ومَحَتْها. [(٢)]

والصفح الإعراض: يقال: صَفَحَ عَنْه يَصْفَح صَفْحًا: أَعرض عَنْ ذَنْبِهِ. العفو عن ذنوبِ الْعِبَادِ والإعراض عَنْ مجَازَاتِهِمْ بِالْعقوبَةِ تَكرّمًا [(٣)]؛ بأن يقابل الإساءة بالإحسان، فهو أعلى درجة من العفو.

والأمر في التركيب الكريم للنصح والإرشاد، فهو ترغيب في العفو والصفح بأبلغ أسلوب؛ وذلك لإزالة كل الآثار السلبية لهذه الحادثة؛ حتى لا تتذكرها النفوس فيتعكر صفوها.

حذف متعلق (وليعفوا وليصفحوا) وسره البلاغي:

حذف متعلق (وليعفوا وليصفحوا) لإفادة العموم لكل مفعول يصح أن يقع عليه مع الاختصار؛ ليتوفر الغرض على إثبات وقوع الفعل من الفاعل.

التركيب الثالث:

ولما كانت لذة الخطاب تنسي كل عتاب، أقبل سبحانه وتعالى بفضله ومنِّه وطوله على أولي الفضل

---

(١) – الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن صـ٢٣٦.

(٢) – لسان العرب مادة: (ع ـ ف ـ ا) جـ١٥صـ٧٢.

(٣) – المصدر السابق مادة: (ص ـ ف ـ ح) جـ٢صـ٢١٥.

مرغبًا في أن يفعلوا بغيرهم ما يحبون أن يفعل بهم، مرهبًا من أن يشدد عليهم إن شددوا فقال:

{أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ}

و"هذا من كمال تلطفه- سبحانه" [١]

الاستفهام ودلالته البلاغية:

الهمزة في التركيب الكريم للاستفهام الإنكاري؛ وهو "إنكار بالغ فيه حث على المغفرة؛ ولذا ما كان من الصديق رضي الله عنه حين نزلت إلا أن قال: بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا [٢]؛ فقوله (بلى) وسياق القصة يعني أن (ألا) استفهام داخل على (لا) " [٣]

يقول ابن عاشور: "الاستفهام في قوله: {أَلا تحِبّونَ} إِنْكَارِيّ مسْتَعْمَل فِي التَّحْضِيضِ عَلَى السَّعْيِ فِيمَا بِهِ الْمَغْفِرَة وَذَلِكَ الْعَفْو وَالصَّفح فِي قَوْلِهِ: {وَلْيَعْفوا وَلْيَصْفَحوا}، وَفِيهِ إِشْعَار بِأَنَّه قَدْ تَعَارَضَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ سَبَب الْمَعْروفِ وَسَبَب الْبِرِّ فِي الْيَمِينِ وَتَجَهَّمَ الْحِنْث وَأَنَّه أَخَذَ بِجَانِبِ الْبِرِّ فِي يَمِينِهِ وَتَرَكَ جَانِبَ مَا يَفوته مِنْ ثَوَابِ الْإِنْفَاقِ وَموَاسَاةِ الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَكَأَنَّه قَدَّمَ جَانِبَ التَّأَثّمِ عَلَى جَانِبِ طَلَبِ الثَّوَابِ فَنَبَّهَه الله عَلَى أَنَّه يَأْخذ بِتَرْجِيحِ جَانِبِ الْمَعْروفِ لِأَنَّ لِلْيَمِينِ مَخْرَجًا وَهوَ الْكَفَّارَة" [٤]

وفيه "تنبيه على وجوب الغفران، أي أنه كما أنكم تحبون أن يغفر الله لكم فاصفحوا واعفوا، فإن الجزاء من جنس العمل والوجدان والإحساس، والفرق بين العفو، والصفح، هو أن العفو هو عدم جزاء السيئة بمثلها، ودفع السيئة بالحسنة، والصفح هو محو آثار الإساءة من النفس" [٥]

و"ألا" تستعمل للعرض والتحضيض، وهي هنا للعرض وهو طلب الشيء بلين؛ وذلك لدخولها على

---

(١) - لطائف الإشارات للقشيري، جـ٢صـ٦٠٢.

(٢) - ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٦صـ٢٣.

(٣) - صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم صـ١١٩.

(٤) - التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٩٠.

(٥) - زهرة التفاسير جـ١٠صـ٥١٦٩.

الفعل المضارع.

وعبر بصيغة الجمع (واو الجماعة) مع أن المخاطب مفرد وهو سيدنا أبوبكر ﵁ لإفادة التعظيم.

التركيب الرابع وأسراره:

ولما كان الجواب قطعًا كما أجاب الصديق ﵁ بلى والله إنا لنحب أن يغفر الله لنا، ختم- سبحانه- الآية الكريمة بما يرفع من شأن العفو والصفح فقال:

{وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

أي كثير المغفرة تعم رحمته بكثرتها، وذكر هذين الوصفين في هذا المقام دعوة للناس بأن يتخلقوا بصفات الله، وإن كانت لا تليق إلا بذاته وجلاله [(١)]

وعطف هذا التركيب على قوله تعالى: {أَلا تحِبّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكمْ} زِيَادَة فِي التَّرْغِيبِ فِي الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَتَطْمِينًا لِنَفْسِ أَبِي بَكْرٍ فِي حِنْثِهِ وَتَنْبِيهًا عَلَى الْأَمْرِ بِالتَّخَلّقِ بِصِفَاتِ الله تَعَالَى" [(٢)]

وقدم {غفور} على {رحيم}؛ "لأن هذا التقديم أولى بالطبع؛ لأن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة تطلب قبل الغنيمة" [(٣)]

---

(١) – المصدر السابق جـ١٠صـ ٥١٧٠.

(٢) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٩٠.

(٣) – من أسرار التعبير القرآني صفاء، صـ٢٢٧.

المبحث الثالث

بلاغة النظم القرآني في آيات عقوبة قذف المحصنات

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)

الآية الأولى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

لما كان ختم الآية السابقة بوصفي {غفور رحيم} بعد الأمر بالعفو ربما جرأ على مثل هذه الإساءة، وصل به مرهبًا من الوقوع في مثل ذلك قوله معممًا للحكم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

إن الذين يتّهمون المؤمناتِ المتزوجاتِ الشريفاتِ المانعات أنفسهن عن كل سوء وريبة، الغافلات عن أن تدور الفاحشة بأذهانهن، والطرد من رحمته في الدنيا، ولهم عذاب عظيم في الآخرة.

والآية مستأنفة مسوقة لتقريع الخائضين في الإفك ووعيدهم الشديد وعتابهم البليغ [(١)]

وللعلماء في هذه الآية قولان: الأول: أنها عامة في كل قاذف، وهذا قول الجمهور، وهو الأظهر.

والقول الآخر: الذي قاله بعض العلماء هو أن الآية في عائشة وأمهات المؤمنين، وأن المخاطبين بهذا الآية هم المنافقون، فقالوا: لعنهم في الدنيا بطردهم من رحمة الله، ولعنهم في الآخرة بعذاب النار.

فجعلوا هذه الآية خاصة فيمن قذف أمهات المؤمنين، ولذلك قالوا: لم يذكر الله جل وعلا بعدها توبة، فكون الله لم يذكر بعدها توبة قرينة تؤيد قول من قال: إنها في أمهات المؤمنين، ومن قال إنها عامة

(١) - إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش، جـ٦ صـ٥٨٦.

فلكون هذا هو الأصل في الخطاب الشرعي" [١]

فإن قلت: إن كانت عائشة هي المرادة فكيف قيل المحصنات؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يراد بالمحصنات أزواج رسول الله ﷺ، وأن يخصصن بأن من قذفهنّ فهذا الوعيد لا حق به، وإذا أردن وعائشة كبراهنّ منزلة وقربة عند رسول الله ﷺ، كانت المرادة أوّلا.

والثاني: أنها أمّ المؤمنين فجمعت إرادة لها ولبناتها من نساء الأمّة الموصوفات بالإحصان والغفلة والإيمان، كما قال:

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الْخَبِيبِينَ قَدِي" [٢]

وتعميم الوعد أبلغ وأقطع من تخصيصه، ولهذا عممت زليخا حين قالت «ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم» فعممت وأرادت يوسف تهويلًا عليه وإرجافًا" [٣]

والآية اسْتِئْنَاف بَعْدَ اسْتِئْنَافِ قَوْلِهِ: {إِنَّ الَّذِينَ يحِبّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَة فِي الَّذِينَ آمَنوا} [النّور: ١٩] وَالْكلّ تَفْصِيل لِلْمَوْعِظَةِ الَّتِي فِي قَوْلِهِ: {يَعِظكم الله أَنْ تَعودوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كنْتمْ مؤْمِنِينَ} [النّور: ١٧] فَابْتدِئَ بِوَعِيدِ الْعود إِلَى محبَّة ذَلِكَ وَثني بوعيد الْعود إِلَى إِشَاعَةِ الْقَالَةِ، فَالْمضَارِع فِي قَوْلِهِ: يَرْمونَ لِلاسْتِقْبَالِ.

وَإِنَّمَا لَمْ تعْطَفْ هَذِهِ الْجمْلَة لِوقوعِ الْفَصْلِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الَّتِي تنَاسِبهَا بِالْآيَاتِ النَّازِلَةِ بَيْنَهمَا مِنْ قَوْلِهِ: {يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنوا لَا تَتَّبِعوا خطواتِ الشَّيْطانِ} [النّور: ٢١] [٤]

(١) – سلسلة محاسن التأويل جـ٩ صـ١٩.

(٢) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـــ٣ صــــ٢٢٤. والبيت من قصيدة لأبي نخيلة حميد بن الزبير يمدح فيها الحجاج بن يوسف.

اللغة: قدني: أي حسـبي وكفاني، وهي عبارة عن (قد) ونون الوقاية، وياء المتكلم. الخبيبان: يروى بصـيغة التثنية، يعنى عبد الله بن الزبير وابنه خبيب، وكانوا إذا ذموه كنوه بأبي خبيب بالتصغير. ويروى بصيغة الجمع، يعنى: عبد الله وشيعته.

(٣) – إعراب القرآن وبيانه جـ٦ صـ٥٨٨.

(٤) – التحرير والتنوير جـ١٨ صـ١٩٠، ١٩١.

هذا وقد نظمت الآية الكريمة في تركيبين اثنين:

التركيب الأول: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}

تعريف المسند إليه بالاسم الموصول وسره البلاغي:

عرف المسند إليه بالموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر؛ وذلك لأن مفهوم الصلة يشير إلى نوع المسند؛ ففي مضمون الصلة، وهو" رمي المحصنات الغافلات المؤمنات" ما يومئ إلى أن الخبر المبني على الموصول وصلته من جنس اللعن العقاب والإهانة.

التعبير بصيغة الرمي {يرمون} وسره البلاغي:

الرَّمْي حَقِيقَته قَذْف شَيْءٍ مِنَ الْيَدِ، وَيطْلَق مَجَازًا عَلَى نِسْبَةِ خَبَرٍ أَوْ وَصْفٍ لِصَاحِبِهِ بِالْحَقِّ أَوِ الْبَاطِلِ، وَأَكْثَر اسْتِعْمَالِهِ فِي نِسْبَةِ غَيْرِ الْوَاقِعِ" [١] ثم استعير للقذف باللسان لأنه يشبه الأذى الحسّي ففيه استعارة تصريحية تبعية لطيفة.

وعبر القرآن الكريم بصيغة الرمي {يرمون}؛ لأن من ينطق بهذه الكلمة يقذفها لا يدري من أصابت في طريقها.

و"لأنه يصيب مقاتل الشرف والعفاف كما تصيب السهام مقاتل الصيد... فألسنة أهل اللغو قد تصيب من هذا الأمر أعراضًا بعيدة عن الريب بعد السماء عن دنس الأرض" [٢]

وفي استعمال صيغة المضارع (يرمون) دليل على تجدد هذا الفعل منهم وأنه صادر عن إصرار وتعمد؛ ولذا استحقوا اللعن في الدنيا والآخرة والعذاب العظيم.

حذف مفعول {يرمون} وسره البلاغي:

حذف مفعول {يرمون} (الزنى) إيجازًا واختصارًا؛ للإشارة إلى أن ذلك هو الرمي الحقيقي، فكأن كل رمي سواه أقل في أثره ونتيجته على أولئك المحصنات. [٣]

---

(١) - المصدر السابق جـ٥صـ١٩٦.

(٢) - أمثال سورة النور للدكتور محمد محمد أبو موسى صـ١٤.

(٣) - ينظر: من بلاغة القرآن في حادثة الإفك، صـ٢٠٦٦.

المحْصَنات: العَفائِف مِنَ النِّسَاءِ. يقال: حَصَّنَت المرأَة نفسَها وتَحَصَّنَتْ وأَحْصَنَها وحَصَّنها وأَحْصَنَت نَفْسَهَا؛ فَهِيَ حاصِن أي عفيفة وحَصان وحَصْناء أَيضًا بَيِّنة الحَصانةِ. والمحْصَنة: الَّتِي أَحصنها زَوْجهَا[١]

فالمحصنات: أي المصونات التي بولغ في صونها حتى كأنها جعل عليها حصن منيع.

وفي تصوير هذه الجريمة بأنها رمي للمحصنات الغافلات تجسيم وتبشيع لها.

سر الاقتصار على ذكر المحصنات دون الرّجال:

اقتصر على ذكر المحصنات دون الرّجال؛ لأن "من رمى مؤمنة فلا بد أن يرمي معها مؤمنًا، فاستغني عن ذكر المؤمنين، ومثله: {سَرابِيلَ تَقِيكم الْحَرّ} أراد: والبرد" [٢] فهو من إيجاز الحذف.

وصف المحصنات بالغفلة وسره البلاغي:

ليس وصف المحصنات بالغفلة عما ينسبن إليه وصف على جهة الذمّ، ولكن لبيان تباعدهن عمّا قيل فيهن. [٣]

جعلهن غافلات، ولا خطر الشر على قلوبهن، فهن في غفلة.

والْغافِلاتِ هنَّ اللَّاتِي لَا عِلْمَ لَهنَّ بِمَا رمِينَ بِهِ. يقال: غَفَلَ عَنْه يَغْفل غفولًا وغَفْلةً وأَغْفَلَه عَنْه غيره وأَغْفَلَه: تركَه وَسَهَا عَنْه [٤]

وهذا كناية عن عدم وقوعهن فيما رمِينَ به؛ لِأَنَّ الَّذِي يَفْعَل الشَّيْءَ لَا يَكون غَافِلًا عَنْه. [٥]

وأقد أفادت تلك الكناية تصوير مدى الظلم الواقع عليهن؛ إذ هن الغافلات عن الفاحشة "على

---

(١) – لسان العرب مادة: (ح ـ ص ـ ن) جـ٣٠صـ١٢٠.

(٢) – زاد المسير في علم التفسير، جـ٣صـ٢٨٧.

(٣) – ينظر: لطائف الإشارات جـ٢صـ٦٠٢.

(٤) – لسان العرب مادة: (غ ـ ف ـ ل) جـ١١صـ٤٩٧.

(٥) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٩١.

الإطلاقِ بحيث لم يخطرْ ببالهنَّ شيء منها ولا من مقدِّماتِها أصلاً ففيها من الدِّلالةِ عَلى كمالِ النَّزاهةِ ما ليس في المحصناتِ أي السليمات الصدور التقيات القلوبِ عن كلِّ سوءٍ" (١)

تقديم الوصف بالتحصن والغفلة على الوصف بالإيمان وسره البلاغي:

قدم القرآن الكريم الوصف بالتحصن والغفلة {المحصنات الغافلات} على الوصف بالإيمان {المؤمنات}؛ "لأن استنكار الرمي مع صفتي التحصن وغفلة النفس عن تلك السيئة أقوى منه مع وصف الإيمان.

وكون وصف الإيمان أصلًا على الإطلاق مستحقًا للتقديم بالذات لا يمنع أن يكون لغيره تقديم خاص في موضع من المواضع" (٢)

ذكر وصف {المؤمنات} وسره البلاغي:

ذكر القرآن الكريم وصف {المؤمنات}؛ لِتَشْنِيعِ قذف الَّذين يقذفونهن كَذِبًا؛ لِأَنَّ وَصْفَ الْإِيمَانِ وَازِع لَهنَّ عَنِ الْخَنَى" (٣)

ولأن قذف الكافرة وإن كان محرمًا ليس فيه هذا المجموع.

والتعبير بهذه الصفات أنسب ما يوافق هذا المقام.

ولما ثبت بهذه الأوصاف البعد عن السوء، ذكر جزاء القاذف كفًّا وتحذيرًا منه بصيغة المجهول؛ لأن المحذور اللعن لا كونه المعين، وتنبيهًا على وقوع اللعن من كل من يأتي منه فقال: {لعنوا في الدنيا والآخرة}.

وفي مجيئه ماضيًا دلالة على أن هذا الحكم ثابت عند الله لمن فعل هذا الفعل.

---

(١) - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم جـ٦ صـ١٦٥.

(٢) - شفاء الصدور بتفسير سورة النور، صـ٨٨.

(٣) - التحرير والتنوير جـ١٨ صـ١٩١.

واللَّعْن: الإِبْعاد والطَّرْد مِنَ الْخَيْرِ، وَقِيلَ: الطَّرْد والإِبعاد مِنَ اللهِ، يقال: لَعَنه يَلْعَنه لَعْنًا: طَرَدَه وأَبعده.[1]
وعلى القول بأن الآية عامة وهو ما عليه الجمهور كما سبق في كل قاذف فإن معنى اللعن هنا إقامة حد القذف عليهم.

وعلى القول بأن الآية خاصة بعائشة وأمهات المؤمنين فإن معنى اللعن هنا في الدنيا بطردهم من رحمة الله، ولعنهم في الآخرة بعذاب النار.

هذا "واستحقاق القذفة للعنة- في الدنيا والآخرة- يدل على أنه لشؤم زلتهم تتغير عواقبهم، فيخرجون من الدنيا لا على الإسلام" [2]

التركيب الآخر: {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}

تنكير المسند إليه ووصفه بالعظم وسره البلاغي:

جاء المسند إليه {عذاب} نكرة، ووصف بالعظم {عظيم} لإفادة التهويل؛ ففيه من تهويل الخطب ما لا يخفى. [3]؛ فلما عظم الجرم وعظم الخطب كان العذاب كذلك عظيمًا.

وفي قوله له عذاب عظيم قصر حيث قصرت الآية الكريمة العذاب العظيم على الذين يرمون المحصنات؛ فهو مخصص لهم لا لغيرهم.

ووصل قوله تعالى: {ولهم عذاب عظيم} على التركيب السابق لاتفاقهما في الخبرية لفظًا معنى، ولاتفاقهما في الغرض وهو التنفير من قذف المحصنات.

ونكر (عذاب عظيم) تهويلا وتعظيما ليناسب عظم ما اقترفوا.

وجاء التركيب جملة اسمية للدلالة على ثبوت العذاب واستمراره.

---

(١) - لسان العرب مادة: (ل ـ ع ـ ن) جـ١٣ صـ٣٨٧.

(٢) - لطائف الإشارات ٢/ ٦٠٢.

(٣) - ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، جـ٦ صـ١٦١ .

الآية الثانية:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

في ذلك اليوم العظيم لا يحتاج الله شهودًا؛ لأن جوارح الإنسان تشهد عليه بما كان يعمل... الله تعالى يجعلها تنطق بالحق؛ وعند ذلك يحاسبهم الله حسابًا دقيقًا ويجزيهم على ما عملوا جزاء الحق والعدل؛ وعندئذ يعلمون أن ما وعدهم الله هو الحق الذي لا شك فيه.

ولفظ يوم متعلق بما تعلق به قوله: {ولهم عذاب عظيم} أي يستحقون ذلك العذاب يوم تشهد عليهم؛ وكأن في هذا إشارة إلى أنهم يحاولون الإنكار والتنصل مما اقترفوا حين يرون ما يحل بهم من عذاب عظيم؛ فيختم الله على أفواههم أن تنطق باختيارهم، ثم ينطق ألسنتهم وجوارحهم بما اقترفوا؛ قطعًا لحجتهم وتسجيلًا للخزي عليهم نظير ما أخزوا الأبرياء. وإنطاق الألسنة والجوارح بالشهادة لا ينافي الختم على الأفواه أن تتكلم بإرادة أصحابها" (١)

والشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر او بصيرة عَلَيْهِمْ تقديمه على الفاعل للمسارعة الى بيان كون الشهادة ضارة لهم أَلْسِنَتهمْ بغير اختيار منهم" (٢)

وتتم شهادة هذه الأعضاء بإنطاق الله تعالى إياها بغير اختيارهم، أو بظهور آثاره عليها وفي ذلك مزيد تهويل للعذاب" (٣)

والآية الكريمة مقررة لمضمون ما قبلها، مبينة لحلول وقت ذلك العذاب بهم؛ لذا فصلت عنه لشبه كمال الاتصال؛ فهي واقعة في جواب سؤال مقدر وكأنه قيل: متى سيكون هذا العذاب؟ فقيل: {يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم}.

حذف المشهود به وسره البلاغي:

---

(١) – شفاء الصدور بتفسير سورة النور صـ٨٩.

(٢) – روح البيان لإسماعيل حقي جـ٦صـ١٣٤.

(٣) – أنوار التنزيل وأسرار التأويل، جـ٤صـ١٠٣.

وَالْمَشْهود مَحْذوف وَهوَ ذنوبهم الَّتِي اقْتَرَفوهَا، أَيْ: تَشْهَد هَذِهِ عَلَيْهِمْ بِذنوبِهِم الَّتِي اقْتَرَفوهَا وَمَعَاصِيهِم الَّتِي عَمِلوهَا يَوْمَئِذٍ يوَفِّيهِم الله دِينَهم الْحَقَّ أَيْ: يَوْمَ تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم القبيحة ويعطيهم الله جَزَاءَهمْ عَلَيْهَا موَفَّرًا، فَالْمرَاد بِالدِّينِ هَاهنَا: الْجَزَاء، وَبِالْحَقِّ الثَّابِتِ الَّذِي لَا شَكَّ فِي ثبوتِهِ." (١)

سر التعبير ب (عليهم) دون (بهم):

عبر بـ (عليهم) دون (بهم)؛ لزيادة التقرير، "فَأولئِكَ الخائضون عِنْدَ اللهِ أي: في حكمه وشرعه هم الْكاذِبونَ الكاملون في الكذب، المستحقون لإطلاق هذا الاسم عليهم دون غيرهم" (٢) وقدم للتعجيل ببيان أن الشهادة ضارة لهم.

النكتة في التصريح بالألسنة:

وضح الشهاب الخفاجي النكتة في التصريح بالألسنة هنا وعدم ذكرها هناك فقال: "لما كانت الآية في حق القاذف بلسانه وهو مطالب معه بأربعة شهداء ذكر هنا خمسة أيضـًا وصرّح باللسان الذي به عمله ليفضحه جزاء له من جنس فعله وهذه نكتة سرية. (٣)

السر البلاغي في تقديم شهادة الألسن:

قدم القرآن الكريم شهادة الألسن "نظرًا أن حادثة الإفك كان المحرك فيها والمذكي أوارها هو الألسن" (٤) فهي المرتكبة لجريمة القذف؛ لذا قدمت على بقية الأعضاء.

تخصيص هذه الأعضاء بالذكر وسره البلاغي:

ذكر القرآن الكريم شهادة الألسنة والأيدي والأرجل للتهويل عليهم لعلهم يتقون ذلك الموقف فيتوبون.

---

(١) – فتح القدير جـ٤ صـ٢١.

(٢) – البحر المديد في تفسير القرآن المجيد جـ٤ صـ١٩.

(٣) – عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي لشهاب الدين الخفاجي، جـ٦ صـ٣٦٨.

(٤) – من بلاغة القرآن في حادثة الإفك صـ٢٠٦٣.

وخص هذه "الْأَعْضَاءِ بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّ الشَّهَادَةَ تكون مِنْ جَمِيعِ الْجَسَدِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَقالوا لِجلودِهِمْ لِمَ شَهِدْتمْ عَلَيْنا [فصلت: ٢١] لِأَنَّ لِهَذِهِ الْأَعْضَاءِ عَمَلًا فِي رَمْيِ الْمحْصَنَاتِ فَهمْ يَنْطِقون بِالْقَذْفِ وَيشِيرونَ بِالْأَيْدِي إِلَى الْمَقْذوفَاتِ وَيَسْعَوْنَ بِأَرْجلِهِمْ إِلَى مَجَالِسِ النَّاسِ لِإِبْلَاغِ الْقَذْفِ" (١)

فـ"إذا كان يطلب لتصديق دعوى الإنسان في الدنيا أربعة شهود، فالقاذف يوم القيامة يقوم في وجهه لتكذيبه خمسة شهود من جوارحه: لسانه ويداه ورجلاه؛ تنكيلًا له وفضيحة لشأنه، جزاءً وفاقًا على محاولته فضيحة المحصنات الغافلات المؤمنات" (٢)

ولو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به من العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف. واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة. كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعا، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأنّ ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك أَنَّ اللهَ هوَ الْحَقّ الْمبِين فأوجز في ذلك وأشبع، وفصل وأجمل، وأكد وكرّر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: أنه كان بالبصرة يوم عرفة، وكان يسأل عن تفسير القرآن، حتى سئل عن هذه الآيات فقال: من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك" (٣)

التعبير بـ{كانوا يعملون} وسره البلاغي:

عبر القرآن الكريم ب {كانوا يعملون} للإشارة إلى أن تلك الأعمال كانت ديدنًا لهم وعادة؛ ففرق بين

---

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٩١.

(٢) – شفاء الصدور بتفسير سورة النور صـ٩٢.

(٣) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ٣صـ٢٢٣.

عمل كذا وكان يعمل كذا.

وبين الألسنة والأيدي والأرجل مراعاة نظير، أدت إلى تلاحم أجزاء الكلام، وحبك بنائه.

الآية الثالثة:

{يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}

فصلت الآية الكريمة عن سابقتها لشبه كمال الاتصال، إذ وقعت جوابًا عن سؤال ناشئ عن الآية السابقة، أي يوم تشهد عليهم ألسنتهم ماذا يحدث لهم؛ فجاء الجواب {يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} وفي هذا الفصل تحقيق وتوكيد من الله على اليوم الموعود؛ إذ توعدهم ولعنهم في الدنيا والآخرة فحقت عليهم لعنته.

ونظمت الآية الكريمة في تركيبين اثنين:

التركيب الأول: {يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ}

بني التركيب على الإيجاز بالحذف؛ حيث حذفت جملة المضاف إليه، وعوض عنها بالتنوين؛ لعلمها من السياق؛ والتقدير يوم إذ تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يوفيهم الله دينهم الحق. وقد أدى هذا الحذف إلى الترابط بين الآيتين.

{يُوَفِّيهِمُ} من التوفية بمعنى إعطاء الشيء كاملًا ووافيًا. يقَال: أَوْفَيْته حَقَّه ، ووَفَّيته أَجْره. ووفَّى الكيلَ وأَوفاه: أَتَمَّه. وكلّ شَيْءٍ بلَغ تمامَ الْكَمَالِ فَقَدْ وَفَى وتَمَّ. (١)

والمراد بالدين الجزاء الذي يستحقونه بسبب آثامهم. فيومئذ يوفيهم الله جزاءهم الحق، وكيف يكون جزاؤهم حقًا؟ إن معاقبة المسيء على إساءته هي عين الحق، كما أن الإحسان إلى المحسن لإحسانه كذلك هو عين عين الحق. (٢)

الوصف بالمصدر {الحق} وسره البلاغي:

وصف القرآن الكريم الدين أي الجزاء بالمصدر {الْحَقَّ} أي العادل الذي لا ظلم فيه للمبالغة في تحقق

(١) – لسان العرب مادة: (و-ف-ى) جـ١٥صـ٣٩٨.

(٢) – ينظر: سلسلة محاسن التأويل، جـ٩صـ١٩.

اتِّصَافه بالحق، كقول الخنساء:

تَرْتَع مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَرَتْ... فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَال وَإِدْبَار [(١)]

التركيب الآخر: {وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}

يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ويرون العذاب العظيم يومئذ "يتحقَّقون بِعِلْمٍ قَطْعِيٍّ لَا يَقْبَلُ الْخَفَاءَ وَلَا التَّرَدّدَ وَإِنْ كَانوا عَالِمِينَ ذَلِكَ مِنْ قَبْل لِأَنَّ الْكَلَامَ جَارٍ فِي مَوْعِظَةِ الْمؤْمِنِينَ وَلَكِنْ نزِّلَ عِلْمهم الْمحْتَاج لِلنَّظَرِ وَالْمعرَّض لِلْخَفَاءِ وَالْغَفْلَةِ مَنْزِلَةَ عَدَمِ الْعِلْمِ" [(٢)]

ومن جمال التركيب الجناس الناقص بين {يَعْمَلونَ} و {يَعْلَمونَ}.

ووصل هذا التركيب بسابقه لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى.

وصف الله بأنه الحق ودلالته البلاغية:

وصفت الآية الكريمة الله بأنه الحق، ويحتمل هذا الوصف معنيين: [(٣)]

أولهما: أنه الثَّابِتِ الْحَاقّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ وجودَه وَاجِب فَذَاته حَقّ متَحَقِّقَة لَمْ يَسْبِقْ عَلَيْهَا عَدَم وَلَا انْتِفَاء فَلَا يقْبَل إِمْكَان الْعَدَمِ.

وعليه يكون الحصر المستفاد من ضمير الفصل حصر حقيقي مبني على المبالغة؛ لعدم الاعتداد بالحق الذي يصدر من غيره من الحاكمين؛ لأنه وإن يصادف المحزَّ فهو مع ذلك معَرَّض للزَّوال وللتَّقْصير وللخطأ فكأَنه ليس بحق أو ليس بمبين.

والآخر: أَنَّه ذو الْحَقِّ، أَيِ الْعَدْلِ وَهوَ الَّذِي ينَاسِب وقوعَ الْوَصْفِ بَعْدَ قَوْلِهِ: {دِينَهم الْحَقَّ}

وعليه يكون الحصر المستفاد من ضمير الفصل حصر حقيقي تحقيقي؛ إذ ليس اسم الحق مسمى به غير ذات الله تعالى، فالمعنى: أن الله هو صاحب هذا الاسم كقوله تعالى: {هَلْ تَعْلَم لَه سَمِيًّا} [مريم:

(١) – ديوانها، اعتنى به وشرحه/ حمدو طمَّاس، صـ٤٦، نشر دار المعرفة بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٤م.
(٢) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٩٣.
(٣) – ينظر: التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٩٢.

[٦٥

والمبين يصح عده وصفًا ل {الحق} بمعنى العدل؛ أي الحق الواضح.

ويصح عده وصفًا لله تعالى بمعنى أن الله مبين وهادٍ.[(١)] ومظهر لما أبطنته النفوس، وخبأته الضمائر.

وبين لفظي الحق جناس تام فالأولى بمعنى الجزاء العادل، والثانية اســم من أســماء الله الحســنى، فالصــورة صــورة تكرير وإعادة مع ما تحويه من إفادة، فلما كان جزاؤه للقاذفين جزاء عادلًا كان هو الحق الحقيق بأن يعبد وحده.

الآية الرابعة:

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

بعد أن برأ سبحانه عائشة مما رميت به من الإفك، ثم ذكر أن رامي المحصنات الغافلات مطرود من رحمة الله ختم- سبحانه- آيات حادثة الإفك بتقرير سنته الإلهية التي نشاهدها في واقع الناس، تلك السنة المبنية على مشاكلة الأخلاق والصفات بين الزوجين، فالطيبات للطيبين، والخبيثات للخبيثين، ورسول الله من أطيب الطيبين، فيجب كون الصّدّيقة من أطيب الطيبات على مقتضى المنطق السليم، والعادة الشــائعة بين الخلق؛ وفي ذلك دليل ينفى الريبة عن عائشــة بأجلى وضــوح؛ فقال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

ونظمت الآية الكريمة في ثلاثة تراكيب:

التركيب الأول: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ}

الابتداء بذكر {الخبيثات} وسره البلاغي:

بدأت الآية الكريمة بذكر الخبيثات؛ "لِأَنَّ غَرَضَ الْكَلَامِ الِاسْتِدْلَال عَلَى بَرَاءَةِ عَائِشَةَ وَبَقِيَّةِ أُمَّهَاتِ

(١) - ينظر: المصدر السابق جـ١٨ صـ١٩٣.

الْمؤْمِنِينَ" (١)

والْخَبِيثات لِلْخَبِيثِينَ تَعْرِيض بِالْمنافِقِينَ الْمخْتَلِقِينَ لِلْإِفْكِ. بِأَنَّ مَا أَفَكوه لَا يَلِيق مِثْله إِلَّا بِأَزْوَاجِهِمْ. وَالْخَبِيثَات وَالْخَبِيثونَ وَالطَّيِّبَات وَالطَّيِّبونَ أَوْصَاف جَرَتْ عَلَى مَوْصوفَاتٍ مَحْذوفَةٍ يَدلّ عَلَيْهَا السِّيَاق. وَالتَّقْدِير فِي الْجَمِيعِ: الْأَزْوَاج.

واللام في {للخبيثين للخبيثات للطيبين للطيبات} للتخصيص، وأل في {الخبيثات الخبيثون الطيبات الطيبون} للجنس.

العطف في التركيب الكريم وأسراره:

يعد عطف قوله تعالى: {وَالْخَبِيثونَ لِلْخَبِيثاتِ} على قوله تعالى: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ} وكذلك عطف قوله تعالى: {وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ} على قوله تعالى: {وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ}؛ من قبيل الإطناب "لمزيد الْعِنَايَةِ بِتَقْرِيرِ هَذَا الْحكْمِ، وَلِتكونَ الْجمْلَة بِمَنْزِلَةِ الْمَثَلِ مسْتَقِلَّةً بِدَلَالَتِهَا عَلَى الْحكْمِ، وَلِيَكونَ الِاسْتِدْلَال عَلَى حَالِ الْقَرِينِ بِحَالِ مقَارِنِهِ حَاصِلًا مِنْ أَيِّ جَانِبٍ ابْتَدَأَهْ السَّامِع" (٢)

ذكر قوله تعالى: {وَالطَّيِّبات لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبونَ لِلطَّيِّباتِ} وسره البلاغي:

ذكر قوله تعالى: {وَالطَّيِّبات لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبونَ لِلطَّيِّباتِ} في التركيب الكريم مع فهمه من المعطوف عليه على سبيل الإطناب "لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْمقَارَنَةَ دَلِيل عَلَى حَالِ الْقَرِينَيْنِ فِي الْخَيْرِ أَيْضًا" (٣)

تقديم قوله تعالى: «الْخَبِيثات لِلْخَبِيثِينَ، وَالْخَبِيثونَ لِلْخَبِيثاتِ» على قوله تعالى: «الطَّيِّبات لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبونَ لِلطَّيِّباتِ» وسره البلاغي:

قدّم قوله تعالى: {الْخَبِيثات لِلْخَبِيثِينَ، وَالْخَبِيثونَ لِلْخَبِيثاتِ} على قوله تعالى: {الطَّيِّبات لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبونَ لِلطَّيِّباتِ}؛ وذلك لأن الخطاب موجه أولا إلى أولئك الذين خبثوا نفسًا ودينًا، فأطلقوا ألسنتهم في الطيبات والطيبين من المؤمنين، وأنهم لو لم يكونوا على تلك الصفة لظنوا بالمؤمنين والمؤمنات

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٩٤.

(٢) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٩٥.

(٣) – المصدر السابق الصفحة نفسها.

خيرًا، ولكانوا يقولون إذ سمعوا اللغط بهذا الحديث: {ما يَكون لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا.. سبْحانَكَ هذا بهْتان عَظِيم} كما وصّى الله المؤمنين بذلك، ودعاهم إليه" (١)

ولما يخص المؤخر من أحكام في آخر الآية وهي قوله تعالى: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}

وبين {الخبيثات لِلْخَبِيثِينَ.. والطيبات لِلطَّيِّبِينَ} مقابلة لطيفة.

وهذه المقابلات تترك في نفس المتلقي ضربًا من الموازنات التي تنبه فيه ضرورة ترجيح إحدى الجهتين على الأخرى ولزومها، قبل فوات الأوان.

تقديم المرأة على الرجل وسره البلاغي:

قدّمت المرأة على الرجل في التركيب الكريم في الحالين: الخبث والطّيب؛ وذلك لأن المرأة هي التي يطلب لها كفؤها من الرجال، فلا يصح أن تتزوج بمن هو أنزل منها شرفًا وقدرًا..

والكفاءة هنا منظور إليها من ناحية التقوى، والعفة، والطهر.. فالخبيثة، كفؤها من هو أخبث منها خبثا.. والطيبة، كفؤها من هو أطيب منها طيبا.. " (٢)

الخبيث والطيب بين الحقيقة المجاز:

للعلماء في المراد بالخبيث والطيب قولان: (٣)

الأول: يرى أنهما وصفان للنساء والرجال. أي النساء الخبيثات للرجال الخبيثين، والنساء الطيبات للرجال الطيبين؛ فهما من قبيل الحقيقة.

ومن أدلة أصحاب هذا الرأي ما يلي:

١- مقابلة الوصف المؤنث بالوصف المذكر "فَالْمَعْنَى أَنَّ الْخَبِيثات مِنَ النِّسَاءِ يَنْزِعْنَ لِلْخِبَاثِ مِنَ الرِّجَالِ، وَكَذَلِكَ الطَّيِّبات مِنَ النِّسَاءِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ.

---

(١) – التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب جـ٩صـ١٢٥٨.

(٢) – التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب جـ٩صـ١٢٥٨.

(٣) – ينظر: الكشاف جـ٣صـ٢٢٥، جامع البيان في تأويل القرآن للطبري جـ١٩صـ١٤٤، والبحر المحيط جـ٨صـ٢٤، وسلسلة محاسن التأويل جـ٥٩صـ٢١.

وعليه تكون الآية الكريمة "تفصيلًا لما أجمله قوله تعالى: {الزَّانِي لَا يَنْكِح إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مشْرِكَةً وَالزَّانِيَة لَا يَنْكِحهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مشْرِك وَحرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمؤْمِنِينَ} (النور: ٣) فهذه الآية مشتملة على هذه الأقسام الأربعة تصريحًا وتضمينًا؛ فجاءت هذه الآية مصرحة بالجميع؛ فيكون التعبير هنا بلفظي الخبيثات والخبيثين كناية عن موصوف وهو الزانيات والزناة.

وقد اشتملت على فائدة أخرى وهي الاستشهاد على براءة أم المؤمنين بأنها زوجة أطيب الطيبين، فلا بد وأن تكون طاهرة طيبة مبرأة مما أفكت به" (١)

٢- ختام الآية بقوله تعالى: {لَهمْ مَغْفِرَة وَرِزْق كَرِيم} وبهذا وعد أزواجه ﷺ في قوله تعالى: {وَمَنْ يَقْنتْ مِنْكنَّ لِلَّهِ وَرَسولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا} (الأحزاب: ٣١)

٣- قَوْل عَائِشَةَ رضي الله عنها حِينَ ذَكَرَتِ التِّسْعَ الَّتِي مَا أعْطِيَتْهنَّ امْرَأَة غَيْرهَا، وَفِي آخِرِهَا: وَلَقَدْ خلِقْت طَيِّبَةً عِنْدَ طَيِّبٍ، وَلَقَدْ وعِدْت مَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا" (٢)

والآخر: يرى أنهما وصفان للكلمات التي صيغ منها الإفك، أي أن الخبيثات من القول تقال أو تعد لِلْخَبِيثِينَ من الرجال والنساء وَالْخَبِيثونَ منهم يتعرضون لِلْخَبِيثاتِ من القول، وكذلك الطيبات والطيبون؛ فيكون الكلام مجازًا بالاستعارة التصريحية.

ومن أدلة أصحاب هذا الرأي:

أن الآيات قبل ذلك إنما جاءت بتوبيخ الله للقائلين في عائشة الإفك، والرامين المحصنات الغافلات المؤمنات، وإخبارهم ما خصهم به على إفكهم، فكان ختم الخبر عن أولى الفريقين بالإفك من الرامي والمرمي به، أشبه من الخبر عن غيرهم. (٣)

---

(١) – الانتصاف فيما تضمنه الكشاف، لابن المنير الإسكندري، جـ٣صـ٢٢٥، نشر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر: ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م.

(٢) – البحر المحيط جـ٨صـ٢٧.

(٣) – جامع البيان في تأويل القرآن للطبري جـ١٩صـ١٤٤.

التركيب الثاني: {أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ}

وفيه شهادة الله- تعالى- وهي تغنى عن كل شهادة- بما يثبت براءة عائشة- رضى الله عنها- من كل ما افتراه عليها المفترون.

وفصل التركيب عن سابقه لما بينهما من كمال الاتصال؛ فهو تأكيد وتقرير لسابقه.

التعبير باسم الإشارة وسره البلاغي:

{أولئِكَ} إشارة إلى الطيبين، وأنهم مبرءون مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلم، وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة وما رميت به من قول لا يطابق حالها في النزاهة والطيب. ويجوز أن يكون أولئِكَ إشارة إلى أهل البيت، وأنهم مبرءون مما يقول أهل الإفك" [١]

و"أشار إليهم بالبعد لبعد منزلتهم في الطيب، والبراءة ((فأوقع "أولئك" وهو جمع على عائشة وصفوان بن المعطل)) [٢]

فـ "قَدْ يَذْكر شَيْئَانِ وَيَعود الضَّمِير جَمْعًا؛ لِأَنَّ الِاثْنَيْنِ جَمْع فِي المعنى كقوله تعالى: {وَكنَّا لِحكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} (الأنبياء: ٧٨) يعني حكم سليمان وداود وقوله: {أولَئِكَ مبَرَّءونَ مِمَّا يَقولونَ} (النور: ٢٦) فَأَوْقَعَ أولَئِكَ وَهوَ جَمْع عَلَى عَائِشَةَ وَصَفْوَانَ بْنِ الْمعَطَّلِ" [٣]

فـ"الإشارة إلى عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أصلا وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعًا" [٤]

وعبر باسم المفعول {بِ} للدلالة على دوام البراءة لهم.

وأخبر عنه بصيغة المذكر في قوله تعالى: {مبرءؤن} للتغليب، وهذه قضية كلِّيَّة؛ ولذلك حقَّ لها أن تجري مجرى المثل وجعِلَتْ في آخر القصة كالتذييل.

---

(١) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ٣صـ٢٢٥.

(٢) – البرهان في علوم القرآن للزركشي، جـ٤ صـ٣٢.

(٣) – المصدر السابق الصفحة نفسها.

(٤) – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، صـ٥٦٣.

التعبير عن الإفك بـ {مما يقولون} وسره البلاغي:

عدل القرآن الكريم عَنِ التَّعْبِيرِ عَنِ الْإِفْكِ باسمه إِلَى {مِمَّا يَقولونَ}؛ للدلالة على أَنَّه لَا يَعْدو كَوْنَه قَوْلًا، أَيْ أَنَّه غَيْر مطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَنَرِثه مَا يَقول} (مَرْيَم: ٨٠)؛ لِأَنَّه لَا مَالَ لَه وَلَا وَلَدَ فِي الْآخِرَةِ"[١]

التركيب الثالث: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}

اللام في {لهم مغفرة} للملك أو للتخصيص، وقدمت للأهمية والتشويق إلى المؤخر؛ ولأن المبتدأ جاء نكرة، أي مغفرة خصصها الله تعالى للمبرئين، وهما عائشة وصفوان رضي الله عنهما.

الرِّزْق الْكَرِيم: نَعِيم الْجَنَّةِ، ولا يقال إن الرزق الحلال يكون في الدنيا؛ لأن المقام مقام جزاء أخروي؛ فينتفي أن يكون الرزق الحلال في الدنيا، وإن كان لفظ الرزق يشمله، لكن القرينة تحدد معنى الرزق هنا (الجنة) ولفظ المغفرة قرينة على ذلك [٢]

والتنكير في (مغفرة ورزق) للتعظيم والتكثير.

وفصل التركيب عن سابقه لما بينهما من كمال الاتصال؛ فهو تأكيد وتقرير له.

(١) – التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٩٥. بتصرف.

(٢) – ينظر: التحرير والتنوير جـ١٨صـ١٩٥.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من ببعثته تمت الرسالات، وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد..

فقد وصل بنا المطاف إلى نهايته مع "بلاغة النظم القرآني في آيات حادثة الإفك" وآن لنا أن نرصد أهم النتائج التي توصل إليها البحث، والتي كان من أهمها ما يأتي:

١ - أن الراجح عند العلماء أن عدد آيات حادثة الإفك ست عشرة آية، تبدأ من قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} وتنتهي بقوله تعالى: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}

٢ - أن الأساليب البلاغية تنوعت في حديث القرآن عن حادثة الإفك غير أن الأسلوب الحقيقي كان الأشيع؛ لأنه هو الأنسب لرد افتراء المفترين، وإثبات براءة الطاهرين؛ لذا لم نجد المجاز إلا في ستة مواضع.

٣- تنوع الأساليب بين الخبرية والإنشائية؛ وهذا التلوين في التعبير حرك النص، وبث فيه الحياة، وملأه بالحيوية والنشاط.

٤ - أن التراكيب في آيات حادثة الإفك قد تنوعت ودق نظمها، لتلائم وتناسب عظم الحادثة وخطرها، فما غلظ الله تعالى على العصاة في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها.

٥- أن حديث القرآن عن حادثة الإفك له خ صائص في معجمه اللفظي؛ فقد وردت فيه ألفاظ فرائد لم ترد في سواه، وهي: (الإفك كِبْرَه تَلَقَّوْنَه بهْتَان تَشِيعَ يَأْتَلِ السَّعَةِ الْغَافِلَاتِ الْخَبِيثَات)

٦- أن حديث القرآن عن حادثة الإفك وردت فيه ألفاظ بصيغ اشتقاقية خاصة به وهي: (تَحْسَبوه سَمِعْتموه تَحْسَبونَه نَتَكَلَّمَ زكى يؤْتوا وَلْيَعْفوا وَلْيَصْفَحوا لعِنوا مبَرَّءونَ)

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثبت بأهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم للدكتور محمود موسى حمدان، نشر مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

أحكام القرآن لابن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة ١٤٢٤ه ٢٠٠٣م.

- الأساس في التفسير: لسعيد حوى، نشر: دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة ١٤٢٤ه ٢٠٠٣م.

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، نشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٢ه/ ١٩٩٢م.

- أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض عادل أحمد عبد الموجود، نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى: ١٤١٥ه/ ١٩٩٤م.

- أسرار ترتيب القرآن للسيوطي، نشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني، نشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: السابعة ١٣٢٣ه.

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة لمحمد بن علي الجرجاني، تحقيق الدكتور/ عبد القادر حسين، نشر مكتبة الآداب ١٩٩٧م.

- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوض، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٥هـ.

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي، نشر: دار الفكر بيروت – لبنان: ١٤١٥ه ١٩٩٥م.

- إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش، نشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) (دار ابن كثير – دمشق – بيروت)، الطبعة: الرابعة١٤١٥هـ.

- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن للدكتور/ محمد الأمين الخضري، نشر: مطبعة الحسين، الطبعة الأولى: ١٩٩٣م.

- الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، د/ عبد الحميد هنداوي، نشر: الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

- الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي، تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠١ه ١٩٨١م.

- الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن، د/ محمود توفيق محمد سعد.

- أمثال سورة النور للدكتور محمد محمد أبو موسى، مقال منشور بمجلة الوعي الإسلامي، العدد: ٣٠٥، نشر: وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية ١٩٨٩م.

- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف، لابن المنير الإسكندري، نشر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر: ١٣٨٥ه ١٩٦٦م.

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٨ه.

- بحر العلوم للسمرقندي، نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١٣ه/ ١٩٩٣م.

- البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، نشر: دار الفكر، بيروت، طبعة: ١٤٢٠ه.

- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، نشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: ١٤١٩ه.

- البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى١٣٧٦ه١٩٥٧م.

- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادى، تحقيق: محمد علي النجار، نشر:

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، للشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، نشر: مكتبة الآداب الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

- بلاغة الصوت القرآني في سورة النور وأثره في الفكر المقاصدي حادثة الإفك من سورة النور أنموذجًا، للدكتوره منال السيد مصباح، بحث منشور في مجلة الزهراء، العدد الثلاثون.

- البلاغة العالية، علم المعاني د/ عبد المتعال الصعيدي، قدم له وراجعه وأعد فهارسه الدكتور/ عبد القادر حسين، نشر: مكتبة الآداب، الطبعة الثانية ١٩٩١م.

- بلاغة التراكيب دراسة في علم المعاني، للدكتور/ توفيق الفيل، نشر: مكتبة الآداب.

- البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني، تحقيق: غانم قدوري الحمد، نشر: مركز المخطوطات والتراث – الكويت، الطبعة: الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

- تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

- التاريخ الكبير المعروف بتاريخ ابن أبي خيثمة، تحقي ق: صلاح بن فتحي هلال، نشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر القاهرة، الطبعة: الأولى ١٤٢٧هـ٢٠٠٦ م.

- تحبير التيسير في القراءات العشر، لأبي الخير ابن الجزري، تحقيق: د. أحمد محمد مفلح القضاة، نشر: دار الفرقان – الأردن / عمان، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، نشر: الدار التونسية للنشر – تونس١٩٨٤هـ.

- التفسير الإعلامي لسورة النور، للدكتور/ خالد إبراهيم الفتياني، نشر: دار طوباس للنشر والتوزيع.

- تفسير سورة النور للدكتور عبد الرحيم فارس أبو علبة، نشر: دار المأمون، الطبعة الثانية ٢٠١٣م.

- تفسير سورة النور لمحمد بن محمد المختار الشنقيطي، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

- تفسير الشعراوي، نشر: مطابع أخبار اليوم.

- تفسير الشيخ أحمد حطيبه، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

- التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب، نشر: دار الفكر العربي – القاهرة.

- تفسير المراغي، نشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى١٣٦٥هـ١٩٤٦م.

- تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، نشر: دار إحياء التراث بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٣هـ.

- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للدكتور/ وهبة بن مصطفى الزحيلي، نشر: دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة: الثانية ١٤١٨هـ.

- التفسير الموضوعي لسور القرآن، لنخبة من العلماء بإشراف: الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى١٤١٣هـ/ ٢٠١٠ م.

- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للدكتور/ محمد سيد طنطاوي، نشر: دار نهضة مصر، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى.

- تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد لناظر الجيش، دراسة وتحقيق: أ. د. علي محمد فاخر وآخرين، نشر: دار السلام، القاهرة – الطبعة: الأولى ١٤٢٨هـ.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠ م.

- الثقات لابن حبان، طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، تحت مراقبة: الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، نشر: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، الطبعة: الأولى ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م.

- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، نشر: المكتبة العصرية، بيروت.

- الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ.

- حاشية القونوي على تفسير البيضاوي لعصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي، تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني للدكتور/ محمد محمد أبو موسى، نشر: مكتبة وهبة، الطبعة: السابعة.

- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، نشر: مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، نشر: دار القلم، دمشق.

- دروس تربوية من سورة النور للدكتور ناصر بن صالح المزيني.

- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، شرحه وكتب هوامشه وقدم له أ/ عبدأ مهنا، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

- ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه/ حمدو طمَّاس، نشر دار المعرفة بيروت لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٤م.

- ديوان طرفة، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، نشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة ١٤٢٣ ه ٢٠٠٢ م.

- ديوان امرِئ القيس، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، نشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الثانية

١٤٢٥هـ٢٠٠٤م.

- روح البيان لإسماعيل حقي، نشر: دار الفكر – بيروت.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٥هـ.

- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، نشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ.

- زهرة التفاسير لأبي زهرة، نشر: دار الفكر العربي.

- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني، نشر: مطبعة بولاق (الأميرية) القاهرة: ١٢٨٥هـ.

- سلسلة محاسن التأويل لأبي هاشم صالح بن عوّاد بن صالح المغامسي، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

- سورة النور (تفسير.. ودروس.. وأحكام) للدكتور/ عبد الحي الفرماوي، الطبعة الثالثة: ٢٠٠٦ م.

- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، نشر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: الثانية ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء للبستي، صحّحه وعلق عليه الحافظ السيد

عزيز بك وجماعة من العلماء، نشر: الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤١٧ هـ.

- شرح التصريح على التوضيح لخالد الأزهري، نشر: دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

- شرح السنة للبغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، نشر: المكتب الإسلامي – دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية ١٤٠٣هـ١٩٨٣م.

- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر: دار التراث –

القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة: العشرون ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

- شفاء الصدور بتفسير سورة النور للدكتور/ إبراهيم الجبالي، نشر: مطبعة الإرشاد، الطبعة الأولى ١٩٣٦م.

- صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، نشر: دار طوق النجاة، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ.

- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب التوبة، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، للدكتور/ محمود توفيق محمد سعد، نشر: مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

- الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلويّ، نشر: المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٣هـ.

- علم الجمال اللغوي، د/ محمود سليمان ياقوت، نشر دار المعرفة الجامعية ١٩٩٥م.

- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، للدكتور/ بسيوني عبد الفتاح فيود، نشر: مكتبة وهبة.

- عِنَاية القَاضِي وكِفَاية الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي للشهاب الخفاجي، نشر: دار صادر – بيروت.

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٦هـ.

- فتح الباري شرح صحيح لا بن حجر، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، وعلق عليه العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، نشر: دار المعرفة – بيرو ت، ١٣٧٩هـ.

- فتح البيان في مقاصد القرآن لأبي الطيب محمد صديق القِنَّوجي، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم

العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، نشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت: ١٤١٢ه ١٩٩٢م.

- فتح القدير للشوكاني، نشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى١٤١٤ه.

- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: د. جميل بني عطا المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، نشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى ١٤٣٤ ه ٢٠١٣م.

- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، نشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

- الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية للنخجواني، نشر: دار ركابي للنشر – الغورية، مصر، الطبعة: الأولى ١٤١٩ه، ١٩٩٩م.

- قبسات من سورة النور، للدكتور محمد كامل أحمد، نشر: دار النهضة العربية، الطبعة: الأولى: بيروت١٩٨١م.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري، نشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤٠٧ه.

- الكنز في القراءات العشر لتاج الدين بن المبارك، تحقيق: د. خالد المشهداني، نشر: مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، الطبعة: الأولى ١٤٢٥ه ٢٠٠٤م.

- اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٩ه١٩٩٨م.

- لسان العرب لابن منظور، نشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة١٤١٤ه.

- لطائف الإشارات للقشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة.

- المؤتَلف والمختَلف للدارقطني، تحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر، نشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت الطبعة: الأولى ١٤٠٦ ه/ ١٩٨٦م.

- المجتبى من مشكل إعراب القرآن د/ أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال، نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة: ١٤٢٦ه.

- محاسن التأويل للقاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٨ه.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ه.

- مختار الصحاح لزين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، نشر: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة ١٤٢٠ه/ ١٩٩٩م.

- مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، نشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٩ه١٩٩٨م.

- المستدرك على الصحيحين للحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١١ه ١٩٩٠ م.

- معجم الصحابة للبغوي، تحقيق: محمد الأمين بن محمد الجكني، نشر: مكتبة دار البيان – الكويت، الطبعة: الأولى ١٤٢١ه/ ٢٠٠٠م.

- المعجم الكبير للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، نشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

- المعْجَم الكَبِير للطبراني، تحقيق: فريق من الباحثين، الطبعة: الأولى: ٢٠٠٦م.

- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر: دار الفكر: ١٣٩٩ه ١٩٧٩م.

- مفاتيح الغيب للرازي، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤٢٠ هـ.

- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ت حقيق: صفوان عدنان الداودي، نشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٢ه.

- المفصل في علوم البلاغة العربية المعاني والبيان والبديع د/ عيسى علي العاكوب.

- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل للغرناطي، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي؛ نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

- الموسوعة القرآنية لإبراهيم بن إسماعيل الإبياري، نشر: مؤسسة سجل العرب، الطبعة: ١٤٠٥ ه.

- من أسرار التعبير القرآني صفاء الكلمة للدكتور/ عبد الفتاح لاشين، نشر: دار المريخ بالرياض ١٩٨٣م.

- من بلاغة القرآن لأحمد بدوي، نشر: نهضه مصر – القاهرة: ٢٠٠٥م.

- من بلاغة القرآن في حادثة الإفك، للدكتور/ عبد الله بن أحمد محمد العمري ١٤٣٢هـ.

- منهج سورة النور في إصلاح النفس والمجتمع للدكتور/ كامل سلامة الدقس، الطبعة الثانية.

- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم للدكتور/ محمد بن عبد الله دراز، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدم له: أ. د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني، نشر: دار القلم للنشر والتوزيع ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، نشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

- النظم القرآني في سورة النور، لعائشة إبراهيم حسن الملاح، نشر الجامعة الأردنية ٢٠٠٤ م.

فهرس المحتويات

المحتويات

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٢٢/١٧٩٠٥